الشخصيّة الاسرائيلية

دكتور حسن ظاظا

دار القلم
دمشق

http://al-maktabeh.com

«الشخصية الإسرائيلية»

الدكتور حسن ظاظا

«الشخصيّة الإسرائيليّة»

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

الادارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧
بيروت ص. ب: ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

لعلّ دراسة «الشخصية» الإسرائيلية من أجدر الدراسات بالتقديم لمن يحاول أن يفهم الأُسس التي استطاع بها دُعاة الصهيونية أن يقلبوا نفور يهود العالم منهم في البداية، إلى إقبال وتأييد واقتناع في النهاية، لدرجة اختفى فيها الفرق بين «اليهودي» و«الصهيوني»، وصارت الكلمتان مترادفتين في خصومة شرسة ودامية ضد العرب والمسلمين في العصر الحديث، وما خفي كان أعظم.

لم يلجأ خصومنا هؤلاء إلى العلم، ولا المنطق، وخالفوا وصايا موسى والأنبياء والأحبار، وتحدّوا كل قواعد السلوك الإنساني الفاضل، لأنهم كانوا يعلمون منذ بدايات الصهيونية المتفرقة في أواسط القرن الماضي، والمتحدة في أواخره، أن العملية في جوهرها إنما هي «اغتصاب»، وأن الاغتصاب لن ينجح إلا بالاعتماد على «الإرهاب»، وأن الإرهاب لا يقوم إلّا على صُنع «الرعب» عند الضحية، والحصول على الإعجاب والعَوْن من «المتفرجين»، الذين كان من المفروض أن يقفوا على الحياد، إذا كانت أبصارهم قد عميت عن الحق، وقلوبهم قد ضلّت الطريق إلى السلام.

كان لا بدّ للصهيونية والحالة هذه أن تتأوّل النصوص الدينية التي يقدّسها اليهود، ويتعبدون بها، لأجل أن تصبّ كلها في مستنقع الاستعمار

الاستيطاني لفلسطين، ولكي يتورط معها في أوحال هذا المستنقع أمم أغراها الطمع، أو التهبت في نفوسها ثارات قديمة، وأحقاد كانت قد خمدت ونامت منذ هزيمة الغزو الإفرنجي للعالم العربي في العصور الوسطى، واندحار مَن كانوا يسمّون أنفسهم «الصليبيين»، بينما المدافعون عن البلاد لم يكونوا يطلقون عليهم إلا اسم «الفرنجة»، لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن «الصليبية» لم تكن إلاّ شعاراً عاطفياً فارغاً من أيّ معنًى أو مضمون، الهدف منه جمع المتطوعين من العامّة والغوغاء من كل أنحاء أوروبا.

كان لا بدّ للصهيونية الحديثة والحالة هذه أن تتجنبَ المنطق، وأن تنفي الأُسس العقلانية من مقوّمات مجتمعها الجديد. وهذه المقوّمات التي عملت على سبك اليهود في «شخصية» منفصلة عن البشر، متعالية عليهم، إنما اعتمدت على «الخرافة» في ترسيخ عصبية عنصرية خطيرة، نقلت بها اليهودي من «عقدة الدونيّة» القديمة إلى «عقدة الفوقية» الحديثة، بلا درجات ولا مقدمات. وما أشرتُ إليه من الإغراق في التأويل لتحقيق هذا الغرض يبدو في استغلال صفة «شعب الله المختار» في الدعاية والإقناع. ومعروفٌ أن الله سبحانه وتعالى لا يختار سُلالات، وإنما يختار مؤمنين، وأنه من هذا المنطلق قال للمسلمين: ﴿ كنتم خيرَ أُمة أُخرجت للناس ﴾، ومنه أيضاً قال المسيح عليه السلام لأتباعه: «أنتم ملح الأرض». فإذا كان موسى عليه السلام قد سمّى المؤمنين بدعوته «شعب الله المختار» فلأنهم بإيمانهم قد رفضوا عبادة الإنسان للإنسان، حتى لو كان هذا الإنسان هو فرعون ذو الأوتاد، وحتى لو قال ألف مرة: «أنا ربّكم الأعلى». فالذي كان يعنيه موسى هو هذا الإيمان الشجاع المِقدام، المتمرّد على الكفر والظلم والطغيان، وليس يعني بذلك كل عَبَدَة الدولار، وتجار أسلحة الخراب والدمار، ومروِّجي الفتن الفكرية والأخلاقية والسياسية في العالم. لقد اختار الله موسى وهارون، ومَن خرجوا معهما من المؤمنين ولكنه ـ سبحانه ـ لم يَخْتر جابوتنسكي أو مناحم بيجن أو شارون أو بيريز أو شامير، فهؤلاء

اختارهم الشيطان، واختارتهم المطامع الدولية، وأصابع الاستعمار الجديد بكل أشكاله، ليكونوا في تلك البقعة من الأرض العربية شعبَ المؤامرة المختار. وهم بيقين يعجزون عجزاً تامّاً عن العمل بوصايا موسى، بل عن إثبات انتماء عنصري إلى مَن خرجوا معه من مصر.

ومعرفة «الخلفيّة العاطفية الأسطورية الشعبية» لهذا التنظيم الاستعماري الخطير ضرورة لنا نحن المرشحين للقيام بدور الفريسة والغنيمة الباردة في هذه المهزلة السياسية الطويلة المملة، إذا كنّا نرفض هذا الدور. وإنّ لنا في رفضه لمسؤولية أمام الله والناس، وأمام الأجيال القادمة من وَرَثَةِ الحضارة العربية والإسلامية. وتلك الخلفية التي تعتبر «البطانة» المتينة للنسيج الاجتماعي الإسرائيلي المعاصر هي التي سمّيناها «الشخصية الإسرائيلية». والتصدي لخصم على هذا القدر من الخطورة يفرض علينا معرفة دقيقة بأدق الدقائق عنده.

من هنا عكفنا على دراسة علمية للمُعطيات التي أسهمت في تكوين الشخصية الإسرائيلية، مؤثرين التأمل الهادىء، والنظر في النصوص والوثائق، والرجوع إلى أحداث التاريخ قديمه وحديثه، على هزّات الأكمام الخطابية، وصيحات التشنّج الغاضبة؛ على أمل أن نفتح بذلك نهجاً وقوراً نحو فَهْم الخطوط العريضة لهذه الشخصية.

كذلك توخينا الإيجاز في العَرْض، حتى لا يفقد القارىء فكرة المؤلف في زَحْمة التفاصيل، وغبار الإسهاب والإطناب. وإذا كان هذا الدرس هو الكلمة الأولى في الموضوع، فلعلّها تكون مشجّعة لآخرين حتى يقولوا من بعد مزيداً من التحليل والشرح، ويطرقوا دروباً أخرى من البحث، فمن ذلك كله يتكون علم بالخصم الصهيوني نحن من أحوج الناس إليه، إذا كنّا صادقين في طلب الحق والعدل والسلام، ورفض أنواعٍ من الترقيع والتطبيع ثبت فشلها منذ تفتقت عنها قرائح أولئك الذين خلقوها بل اختلقوها.

وبعد قرن من الكفاح العربي ضد الصهيونية، في ظل الأتراك العثمانيين أولاً، ثم البريطانيين ثانياً، ثم إسرائيل الصهيونية أخيراً، نجد أن تقصيرنا في دراسة الخصم قد جرّ علينا الوقوع في أخطاء عسكرية وسياسية واقتصادية وحضارية مازلنا نكتوي بنارها حتى الآن، ولا ندري كيف يسوغ هنا أن نجد من العرب من تبحَّرَ في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية وغيرها من ألسنة العالم، ولا نجد بعد مترجمين وكتّاباً يتقنون العبرية ويضربون في مسالك الفكر الإسرائيلي كالسمك في الماء.

فهذا الموجز الذي أتشرف بوضعه تحت نظر القارىء العربي اليوم إنما هو دعوة إلى الاهتمام بالتغلغل في أعماق القوم من أجل معرفةٍ أعمق وأدق، يجب ألاّ تقف عند لغتهم ـ أو لغاتهم فحسب ـ بل تجاوز ذلك إلى كل ما له صلة من قريب أو بعيد في تكوين الشخصية الإسرائيلية.

الدكتور حسن ظاظا

http://al-maktabeh.com

ضرورة التعرّف على الشخصيّة الإسرائيليّة

هناك قول مأثور ردَّده التلمود أكثر من مرة، هو:

«كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فإنه لا يمكن أن يعيش بدون إسرائيل»[1].

وهذا القول وحده كافٍ لوضع علامات على حدود الشخصية الإسرائيلية. إذ يمكن بسهولة أن نستنتج منه النزعة العنصرية التي تجعل الإسرائيلي يشعر أنه من جوهر غير طينة البشر جميعاً، وأن هذا الجوهر منفرد بأسرار ومواهب لا توجد في غيره، وأن الإسرائيلي قد خُلِق كذلك بتدبير سماوي، لأن الدنيا التي أبدعها الله سبحانه وتعالى ما كان يمكن أن يستقيم أمرها من غير اليهود!!.

فنحن نرى كيف يتحول الإحساس بالقلَّة والذلَّة إلى صورة لا مثيل لها من الغرور وجنون العَظَمة والصَّلَف والكبرياء، التي تجعل عودة تلك الفئة من الناس إلى إطار المجتمع الإنساني السليم أمراً مُستعصياً، يحتاج إلى إصلاحٍ عميق وعلاجٍ طويل.

وإذا كانت القاعدة أنه لا دواء قبل معرفة الداء، فإن معرفة

---

(١) التلمود البابلي، عبوده زارة، ١٠/ب ـ تعنيت، ٣/ب ـ مدراش يلقوط على سفر زكريا ١٩٦٩.

الشخصية الإسرائيلية تكاد تكون فرضاً على النفوس المُحبّة للإنسانية، وضريبة على العقول الباحثة عن العدل والإخاء والسلام. وهي اليوم أكثر أهمية منها في أيّ عصرٍ مضى، ثم هي في مجتمعنا العربي أشدّ إلحاحاً منها في أيّ مجتمعٍ آخر، على الأقل، لأن القضية الفلسطينية ما تزال تستنزف في قلب وطننا قدراً هائلاً من العرق والدمع والدم، ومن الحبر الذي تجري به أقلام الكتّاب والباحثين.

وقَوْلَة التلمود التي افتتحنا بها هذا المقال قد تضعنا على طريق هذه المعرفة، ولكنها لا تكفي للبحث ولا للحكم. فالشخصية الإسرائيلية أشدّ تعقيداً من ذلك بكثير، تدخل في تركيبها عناصر شتى، تجمَّعت في ظروف شديدة التنوّع والتباين، عبر مسافات شاسعة بعيدة في الزمان والمكان، حتى أصبح من أصعب الأمور أن يصف الباحث الحدود الخارجية لهذه الشخصية ـ فضلاً عن القَسَمَات الدقيقة، والملامح الجزئية ـ وصفاً ناطقاً بحقيقتها، جامِعاً مانِعاً مقنعاً. ولكن على الرغم من كلِّ الصعوبات التي تقف في هذا السبيل، فإن التعرّف على الشخصية الإسرائيلية يظل ممكناً طالما استعدّ له الباحث بأكبر قدر من التجرّد والموضوعية، التي لا ينساق فيها وراء خرافات اليهود، ولا يأخذ فيها بخرافات أعدائهم كذلك.

مَاهِيَ الشّخصيّة ؟

ولنبدأ هنا بالاتفاق على دلالة بعض الألفاظ التي يكثر دورانها عند الخوض في هذا الموضوع، فنسأل مثلاً: ما هي الشخصية؟

تقول المعاجم في تعريف الشخص: «إنه سواد الإنسان وغيره الذي تراه من بُعْد. وقد يُراد به الذات المخصوصة. ولا يطلق في اللغة إلا على ما له جسم. وقد يُخصّص للإنسان فقط، ذَكَرَاً أو أنثى»(٢). والشخصية لفظة مولّدة مشتقّة منه، تدل في علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة على العلامات المميّزة للإنسان أو لمجموعة من البشر. وليست هذه العلامات

---

(٢) لفظة شخص العربية تقابلها في اللغات الأوروبية ألفاظ من الأصل اللاتيني persona وأصل معناها في اللاتينية القناع الذي كان الممثل يضعه على وجهه للأداء المسرحي، وكان هذا القناع يحمل الملامح المميزة للشخصية التي يقوم الممثل بأداء دورها. ثم استعملت اللفظة عندهم بمعنى المميزات الشخصية في المظهر والأخلاق، واستُعملت أيضاً بمعنى شخص. ويرى علماء فقه اللغة اللاتينية أن لفظة persona هذه أصلها يوناني مع تحريف شعبي في النطق، والأصل اليوناني هو proswpon . ومن هذه الأصول القديمة اشتق الأوروبيون أيضاً اللفظة التي تعني الشخصية، بالفرنسية مثلاً personnalité ويفسرونها بأنها مجموع الصفات الجسمية والخلقية التي تميز الشخص عن غيره. وفي الاستعمال المحدثة عندهم تدل الشخصية على الوجيه من الناس والوجهاء، كما هو الشأن في تطور دلالتها عندنا في العربية.

Eugène Benoist et Henri Geolzer: Nouvea Dictionnaire Latin- Français; Garnier Frères; Paris, 1936.

Paul Guérin: Dictionnaire des Dictionnaires; Tome V; Paris.

مقصورة على السحنة أو القامة أو شكل الجمجمة أو لون البشرة والشعر والعينين، أو حتى اللغة. بل لعلّ ذلك كله يتعرض للاختلاط والتغيير والتبديل، حتى يصعب الاعتماد عليه في تحديد الشخصية. على حين تدخل عناصر أخرى أثبت وأعمق وأهم عند الباحثين، كالعادات والتقاليد، والمأثورات الشعبية، والتراث الحضاري القديم، والتماسك حول نواة اجتماعية قد تكون أسطورية، ولكنها مع ذلك قد ظلّت نشيطة وفعّالة في سبك الطباع، وتكوين الشخصية.

فهذه الخطوط الفكرية والاجتماعية المميزة أقدر على صب الشخصية في قالبها المعين، من كثيرٍ من الاعتبارات الأخرى. فالبريطاني والأسترالي شخصيتان مختلفتان على الرغم من وِحدة الأصل والدين واللغة وتشابه السحنة، لأن كلاً منهما تطور في ظروف إقليمية واقتصادية تغاير ظروف صاحبه. ومن السهل تعقّب هذه الظاهرة في شخصية الإيطالي والفرنسي والإسباني، وهم جميعاً أوروبيون مسيحيون كاثوليك من أصل لاتيني. ولكن اختلاف الزمان والمكان، وانبثاق ثقافة محلية قديمة لكلٍ من هذه الشعوب، جعلها في النهاية شخصيات مستقلة عن بعضها. وقد ساعد على ذلك طبيعة اختلاط كلٍّ منهم بعناصر بشرية مختلفة، فالفرنسيون خالطوا النورمانديين والقوط والكلت، والإسبان امتزجوا بالوندال والقوط والعرب، كما امتزج الإيطاليون باليونان والأتروريين وغيرهم. وهي هجنة تركت مميزات واضحة في شخصية كلٍّ من هذه الشعوب.

وعلى ذلك فإن البحث الجاد عن «الشخصية» ينبغي أن يطل على مجموعة كبيرة من الظواهر التي لعبت دوراً ـ قلّ أو كَثُر ـ في حياة فئة من الناس، وفي ظروفها ومقدراتها. على أن هناك درجات في الأهمية يجب ألاَّ تغرُب عن البال عند اختيار الظروف والعناصر والظواهر التي تخلق الشخصية. فقد تكون الأسطورة التي تؤمن بها فئة من الناس أعمق أثراً من الوثيقة التاريخية. وقد تكون البدعة التي اختلطت بالدين أقوى عندهم

من الدين نفسه، وقد تكون ذكرى حادثة قديمة عندهم أضخم بكثير من الحادثة نفسها وكل ذلك يمثّل وقوداً تنصهر فيه النفوس، وتنسبك به السجايا، وتتبلور فيه الشخصية.

http://al-maktabeh.com

مَا مَعْنَى الإِسْرَائِيلِيَّة ؟

وإذا كنّا قد وصلنا إلى تصورٍ ما لمدلول لفظة الشخصية، فإننا ما نزال بحاجة إلى استيضاح معنى «الإسرائيلية».

ومن الممكن ـ فراراً من الجدل الطويل ـ أن نقول: إن الإسرائيلية تعني كلّ ما يتصل بإسرائيل، أو باليهود. ولكن يكون الخطأ جسيمًا مع هذا الاكتفاء؛ فاللفظتان غير مترادفتين تماماً، وقد تقفز أمامنا ونحن نتأملهما مصطلحات أُخَر لا تقلُّ عنهما تعقيداً، نحو «العبريين» أو «الصهيونيين» أو «شعب الله المختار» أو «الشعب الأبدي» أو حتى «اليهودي التائه».

مَن هو إسرائيل الذي إليه تنتمي الإسرائيلية؟

في توراة اليهود أنه سيدنا يعقوب وهي تروي في ذلك قصة تذكر أنه شهدها عند هجرته إلى أرض الكنعانيين ـ فلسطين ـ وهو قادم إليها بأهله شريداً غريباً هارباً من أصهاره بالعراق، يخوض جدولاً صغيراً في منطقة الأردن اسمه «اليبوق».

قال الراوي: «فبقي يعقوب وحده، يصارعه رجل ما حتى مطلع الفجر، فلما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حُقَّ فخذه، فانخلع حُقُّ الفخذ من يعقوب في صراعه معه. ثم قال: أطلقني فقد طلع الفجر. فقال: لا أُطلقك إلا إذا باركتني. فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب. فقال: لن يُدعى اسمك يعقوب من بعدُ، بل إسرائيل، لأنك صارعت الله والناس،

وغلبت» ـ (التكوين ٣٢ : ٢٤ وما بعدها).

وواضح أن هذه القصة تروي موقفاً خارقاً للمألوف، وقد طال النقاش بين الباحثين حول مضمونها جملةً وتفصيلاً، وقد رأينا مثلاً أن الذي صارع يعقوب مذكور في النص أنه «رجل» لا أكثر. ولكن سعديا الفيومي، علاّمة اليهود في بغداد في أيام العباسيين، يضع مكانها في ترجمته العربية للتوراة لفظة «ملاك»، ثم يحاول في آخر القصة الابتعاد عن إثبات حدوث مصارعة بين الله ويعقوب، فيتصرف في النص ويقول: «لأنك ترأست عند الله وعند الناس، وطقت ذلك»[٣].

واهتمّ علاّمة الفولكلور البريطاني فريزر بهذه المصارعة العجيبة، في فصل كامل من كتابه «الفولكلور في العهد القديم»[٤]، أشار فيه إلى أن المشهد قد حدث ليلاً بجانب مجرى ماء، طبقاً لاعتقاد أسطوري بدائي في وجود مخلوقات غامضة من قبيل الأرواح والعفاريت تسكن مجاري المياه، وتظهر للناس في الظلام.

وقد قُدِّر ليعقوب أن يكون شيخ عشيرة تنتمي إليه، هم بنو إسرائيل. فراحوا يتناقلون هذه المفخرة المأثورة عن سلفهم القديم المبارك، الذي فعل العجائب في تلك الليلة الرهيبة، وأثبت أنه من الأقوياء الجبابرة، القادرين على المصارعة وعلى التغلّب على الأنداد، لا من البشر فحسب، بل عندما يصارع الله أيضاً!! وعبادة القوة البدنية من شِيَم المجتمعات الفطرية البدائية، وقد تكرر ذلك كثيراً في آداب اليهود،

---

(٣) الجزء الأول من التفاسير والكتب والرسال، لربينو سعديا جاون بن يوسف الفيومي، أخرجها وصحّحها صحبة جماعة من علماء: الفقير المفتقر إلى رحمة ربه يوسف ديرينبورج، تفسير التوراة بالعربية، باريس ١٨٩٣. صحيفة ٥١.

(٤) جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، (مجلدان). ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، مراجعة الدكتور حسن ظاظا ـ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول ١٩٧٢ والثاني ١٩٧٤، جـ ١ ص ٣٦٤ وما بعدها.

ويكفي أن نشير إلى ما يروونَه حول رجل آخر من أبطالهم الأسطوريين هو «شمشون»، الذي كُتِب لمغامراته أن تشيع وتذيع في جميع الأقطار والأمصار. لكن الغريب في أمر يعقوب أنه في صِباه لم يكن يبشر بهذه القوة، التي تجعله أشدّ المصارعين بأساً في التاريخ كله. فالتوراة نفسها تقارن بينه وبين أخيه التوأم «عيسو»، فتصف هذا الأخير بأنه كان صياداً ورجل بادية، وأنه كان خشِناً غزير الشعر غليظ الصوت، وأن يعقوب كان بعكس ذلك تماماً. ثم إننا في قراءة التوراة نلتقي بيعقوب خائفاً من أخيه يهرب من وجهه، ويترك له البلاد ومَنْ عليها، ثم نجده مرة أخرى خائفاً من أصهاره هارباً من حميه، ثم نجده في آخر عمره مستكيناً حزيناً يبكي بكاء الثكلى حتى ابيضّت عيناه، عندما اختفى ابنه يوسف. وفي هذه المواقف كلها ينفرد يعقوب بموقف بطولي واحد يصارع فيه ويتغلب على ندّه، رجل الليل الغامض، أو الملاك، بل الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ومهما يكن من شيء فإن هذه المفخرة المأثورة عند الأحفاد تجعله في نهاية تلك المصارعة، عند مطلع الفجر، يستحق لقب «إسرائيل» أي «قوة الله»، من لفظتين ساميتين قديمتين هما «أسر» بمعنى القوة والغَلَبة، مثل الأزْر تماماً، ولفظة «أل» أي الإله، الله.

وقد قدَّمنا أن القصة المأثورة قد تكون أقوى أثراً في الشخصية من الوثيقة التاريخية المكتوبة. وليست عندنا وثائق تقول إن إسرائيل هو يعقوب. ولكن وردت في النقوش كلمات قريبة من لفظة «إسرائيل» تُشير إلى فئة من البشر أو عشيرة من الناس. فقد ذكر البريطاني «فلندرز يتري» أن اللغة المصرية القديمة تستعمل كلمة «أسير آرا» اسمًا لمجموعة من الناس، كما يشير الألماني «شرادر» وغيره من علماء المسمارية إلى أن لفظة «سيرئيلاي» مستعملة في البابلية الأشورية بمعنى «إسرائيل» و«إسرائيلي»(٥).

---

(٥) Wilhelm Gesenius' Hebraisches und Aramaisches Handworterbuch uber das Alre Testament; Bearbeitet von Dr., Frants Buhl; Leipzing; 1921- 17 Auflage.

وهكذا نجد هذه الطائفة من الناس قد تعلَّقت بقصة هذا الجدّ القديم، ودَرَجَت على أن تسمّي نفسها «بيت إسرائيل» أو «آل إسرائيل» أو «بني إسرائيل»، وكثيراً ما يختصرون التعبير فيقولون: «إسرائيل» فقط كما رأينا في مأثور التلمود، وكما ورد في الوثائق الفرعونية والبابلية الآشورية.

شيوع كلمة «يهودي»
على الإسرائيليين

ظهر إلى جانب التسمية بإسرائيل منذ القِدَم تسميتان أُخريان هما: «عبري» من جهة، و«يهودي» من جهة أخرى، وسنعود إليهما بالشرح عمَّا قليل. ويكفي الآن أن نشير إلى أن التسمية «يهودي» قد شاعت وذاعت في أيام اليونان والرومان، أي من القرن الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى الآن. إذ كان سبط يهوذا، وهو أحد أبناء يعقوب، قد استقر في جنوب فلسطين، وظهر منه سليمان وداود، ثم قام من بعدهما حكم مَلَكي في بني إسرائيل كله من يهوذا، يسيطر على العبريين في هذا الإقليم، حتى سمّى الإقليم نفسه يهوذا في السجلات اليونانية والرومانية كما سمّى أهله اليهود. ولاحقتهم هذه التسمية بعد جلائهم عن الأرض وتشتتهم في البلاد.

وفي الشتات اتخذ اسم اليهود معنىً بغيضاً بين الأمم. فهم أبناء هذه الطائفة المتمردة، المنطوية على نفسها، الشديدة التعصّب، المتهمة بصلب المسيح، إلى جانب صفات سيئة أخرى اكتسبوها من الظروف الشاذّة التي عاشوا فيها بين الأمم الأخرى على شكل أقليّة محتقرة، من أبرزها: الجشع وحبّ المال، والقسوة، وعدم التدقيق في نظافة الجسم والمسكن والثياب. حتى أصبح أمراً عادياً أن يسمع الإنسان في بقاع متفرقة من الأرض عبارات مثل «اليهودي التائه»، «اليهودي الجشع»، «اليهودي القذر»؛ وهو أمر دعا كثيراً من أثرياء اليهود إلى تجنّب هذه التسمية، وتفضيل اسم إسرائيلي عليها.

http://al-maktabeh.com

ومع ذلك فإن تيودور هرتسل زعيم الصهيونية الحديثة، ورئيس المؤتمر الصهيوني العالمي الأول المنعقد في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧، لم يتردد في تسمية كتابه المتضمن لدعوته هذه «دولة اليهود». ولكن هذه الدعوة أثرت عند الكتابة عن فلسطين أن تسميها «أرض إسرائيل» لا «أرض اليهود»، وكأنهم حرصوا على تأكيد انتماء هذه الأرض إلى مَن يزعمون أنهم أسلافهم الأول، وهم أبناء يعقوب، أو بنو إسرائيل.

كذلك عندما أعلنت الصهيونية عن قيام دولتها في فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ م أطلقت عليها كما نعلم اسم «إسرائيل»، مفضلة ذلك على الاسم الذي كان هرتسل قد اختاره وهو «دولة اليهود». والأسباب التي دعتهم إلى ذلك يبدو أنها كثيرة أهمها:

- إيجاد تناسق بين اسم الدولة والاسم العبري لفلسطين، وهو أرض إسرائيل.
- إيثار الصفة العنصرية الكامنة في اسم إسرائيل على الصفة الدينية في لفظ اليهود.
- عدم الرغبة في التذكير بالحدود القديمة لمملكة اليهود البائدة، التي لم تكن تشمل إلا القسم الجنوبي من فلسطين بدون ساحل البحر، مما يمثّل قيداً تاريخياً للمطامع التوسعيّة الاستعمارية للصهاينة الذين يريدون أن يضعوا تحت قبضتهم أوسع رقعة ممكنة من الوطن العربي.

ومن هنا اكتسبت لفظة «إسرائيلي» في المصطلح السياسي المعاصر دلالة مختلفة تماماً عن الإسرائيلي قبل الصهيونية، والإسرائيلي في بداوة العبريين الأولى. وهي ظاهرة ما تزال تمثّل مشكلة معقدة جداً أمام المشرِّعين في دولة الصهاينة؛ إذ لايزالون يتساءلون من هو الإسرائيلي؟.

وسيجد القارىء في البحث التالي توضيحاً لهذه المشكلة، وما أصدروه من قوانين لحلّها، رغم أنهم لم يتوصلوا إلى الآن إلى حلٍّ نهائي لها.

مَن هُوَ الإسرائيلي ؟

يبدو أن الظروف الدولية قد اضطرت مشرِّعي دولة إسرائيل إلى القول بأن الإسرائيلي هو أي شخص توافق الدولة الصهيونية على أن يكون من أبنائها، يهودياً كان أم غير يهودي. وهو تعريف زاد المشكلة تعقيداً. فالعرب الذين بقوا في وطنهم فلسطين بعد إعلان دولة إسرائيل هناك، كان لا بدّ أن توافق هذه الدولة على أن يكونوا من أبنائها، وكان لا بدّ في نفس الوقت أن تضغط عليهم حتى يغادروها، وأن تتلمس شتى العلل والأسباب لإرهابهم وطردهم وتشريدهم، وأن تتعامل مع كثيرٍ ممن تشبث بأرضه منهم وكأنه عدوٌّ لا مواطن. وهناك يهود في جميع أنحاء العالم يمثلون الأغلبية العظمى من بني إسرائيل، لم ينزحوا إلى إسرائيل، وهم يتمتعون بحقوق المواطن في بلادهم التي يعيشون فيها، بينما تحرص إسرائيل على إدخالهم في حظيرتها.

ولمواجهة هذا الوضع المعقَّد أصدرت الدولة الصهيونية قانونين لتنظيم صفة المواطن بما يتّفق مع أهدافها:

١ ـ **قانون العودة**، الصادر في ٥ يوليه سنة ١٩٥٠ م، وهو يعطي لكل يهودي في العالم حقّ الهجرة إلى إسرائيل بلا قيد أو شرط. بل إنه ينص في المذكرات التفسيرية الصادرة معه على أن هذه الهجرة ليست حقّاً وإنما هي واجب على اليهود. ويطابق هذا القانون ما ورد في إعلان قيام الدولة بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨ م، الذي تسمّيه إسرائيل «وثيقة إعلان الاستقلال»، إذ ينص على أن «الدولة الإسرائيلية ستفتح

أبوابها لهجرة اليهود المنتشرين في كافة أنحاء العالم».

٢ ـ **قانون الجنسية الإسرائيلية**، الذي أقرّه مجلس النواب الإسرائيلي (الكنيست) في ١٤ إبريل سنة ١٩٥٢ م، وأصبح نافذاً منذ ١٤ يوليه من نفس تلك السنة. وقد اعتبر جميع يهود فلسطين مواطنين دون أية قيود. أما الفلسطينيون العرب من سكان البلاد، البالغ عددهم حسب الإحصاء الإسرائيلي ـ وهو مزيَّف بلا شك ـ ١٧٠ ألف عربي، فقد كان على كل واحد منهم أن يُثبت بالوثائق أنه كان فلسطيني الجنسية قبل ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ م، تمهيداً للنظر في منحه الجنسية الإسرائيلية. كما أن الصهيونية اشترطت شروطاً أخرى لجعل أولئك العرب رعايا للدولة لم تشترطها في اليهود؛ في مقدّمتها معرفة اللغة العبرية، وتقديم ما يُثبت أن هذا العربي الفلسطيني لا يحمل أية جنسية أخرى، وهي عراقيل لم تسمح بحق المواطنة إلا لعدد محدود جداً من العرب، بينما بقيت جماهير كثيرة جداً منهم محرومة من الحقوق الأساسية للمواطن، بل للإنسان. وبعد سنين طالت فيها المساومات بين أولئك العرب والمغتصب الصهيوني، أصبحوا يعتبرون في عداد «السكان» المقيمين في بلاد اليهود، أي مواطنين في أدنى درجات المواطنة. وفيما يتصل بمنح الجنسية الإسرائيلية لليهود نجد هذا القانون يكتفي بأن يكون عمر طالب هذه الجنسية ثمانية عشر عاماً، وأن يُقيم في إسرائيل ثلاث سنين يكون قد حصل في أثنائها على حق الإقامة الدائمة، وجعل «الجنسية المزدوجة» مباحة لهم.

ونتيجة للعدوان الإسرائيلي المتكرر على الأراضي العربية المجاورة، وضم أقاليم واسعة منها إلى السلطة العسكرية الصهيونية، ازداد عدد العرب الواقعين في تلك الأراضي. ومن ثَمَّ كَثُرُ وصفهم ـ حتى في الأوراق الرسمية ـ بكلمة «فلسطيني» لا «إسرائيلي». ويبدو أن ذلك تمهيد من إسرائيل للسماح بقيام فلسطين عربية يلقون إليها بكل مَن عندهم من

العرب، بعد التأكّد المطلق من أن هذه الدولة الفلسطينية لن تمثل خطراً عسكرياً أو سياسياً عليهم، ولن تعرقل شيئاً من مشاريعهم المستقبلية.

والخلاصة أن «الإسرائيلي» في مفهوم هذه الدولة هو أولاً وأخيراً: اليهودي المقيم في إسرائيل، واليهودي المقيم في خارج إسرائيل أيضاً، بشرط أن يكون صهيونياً متمسكاً بالـولاء لإسرائيـل. وفيما عـدا ذلك لا شيء، إلا ألفاظاً للتعمية على أبشع صورة من صور العنصرية التي ظهرت في العصر الحديث.

ومع ذلك فإن الدولة الصهيونية عند تطبيق هذين القانونين تواجه مشاكل لا حصر لها، ما تزال تُثير مناقشات حادّة بين الأحزاب الصهيونية حتى الآن. وفي مقدمة ذلك مشكلة الزواج المختلط، ومستقبل الأطفال الذين يولدون من مثل هذا الزواج، فضلاً عن مشاكل الداخلين في الدين اليهودي من غير بني إسرائيل، والخارجين عن هذا الدين منهم، وأتباع بعض الطوائف اليهودية المنشقة كالسامرة والقرَّائين مثلاً.

* * *

مَا مَعْنى لفظ عِبْري ؟

إذا كان ما تقدّم معنا هو ما جرى من تطورات على لفظة إسرائيلي ومدلولها، فما هو مدلول لفظة «عبري»؟.

ترتبط هذه اللفظة في الفكر الإسرائيلي بمعنى عنصري أيضاً. فالروايات المقدسة ترفعها إلى اسم واحد من الأجداد القدامى للساميين، هو عابر، بن شالح، بن أرفكشاد، بن سام، أكثر أبناء نوح خيراً وبركة، (التكوين ١١).

ومثل هذا الاشتقاق الشعبي شائع في تراث الأمم القديمة، وإن كان اليهود هنا قد حاولوا أن يتناسوا أن العرب أيضاً هم من أبناء عابر هذا. فالتوراة تذكر من أبنائه «يقطان» (التكوين ١٠ : ٢٥)، وهو المعروف عندنا باسم «قحطان»، الذي تنتمي إليه جميع قبائل العرب الجنوبية في اليمن وحضرموت، وغيرهم. كما أن العرب الشماليين أو «العدنانية» ينتمون إلى إبراهيم سليل عابر هذا، شأنهم في ذلك شأن بني إسرائيل. ولكن الفكر الشعبي في تعلّقه بالمأثورات لا يتحرى هذا التدقيق، ولذلك نجد اليهود في انتسابهم لعابر يصرّون على أنهم وحدهم العبريون، لا شريك لهم في ذلك. وهكذا يقول «يهودا جور» في معجمه العبري الحديث: «عبري، أي أحد أبناء عابر من أحفاد سام، وعلى الخصوص أحد بني إسرائيل، أي المنتمين إلى عنصر العبريين». وهكذا تنبثق العنصرية من الأسطورة مرة أخرى.

http://al-maktabeh.com

وفي بعض مراحل التاريخ اليهودي كانت كلمة عبري تستعمل مرادفة تماماً لكلمة يهودي. جاء في سفر أرميا ٣٤:٩: «حتى يطلق كل امرىء عبده وأمته، العبري والعبرية حرّين، فلا يستعبد أحد إنساناً يهودياً من إخوته». وقبل ذلك في أيام النبي صمويل يبدو أن الفلسطينيين كانوا يستعملون الاسم «عبري» مرادفاً للاسم إسرائيلي، إذ يقول أحدهم في التحريض على قتال بني إسرائيل: «تشجعوا يا أهل فلسطين، وكونوا رجالاً، حتى لا تُستعبَدوا للعبريين كما استُعبدوا هم لكم، فكونوا رجالاً وقاتلوا» (١ صمويل ٤:٩).

وبعد العودة اليهودية من السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد، أصبح استعمال اسم «العبريين» مخصصاً بالرعيل الأول من أمة اليهود، أي من أيام يعقوب ويوسف وموسى إلى ما قبل السبي البابلي؛ بينما جرت العادة باستعمال تسمية «اليهود» أو «إسرائيل» للأجيال التي جاءت بعد السبي. وكانت اللغة العبرية قد أوشكت أن تموت في ذاك الوقت، وكانوا يسمّونها «لسان عابر».

وفي العصر الحديث نجد كلمة عبري ترتبط على ألسنة اليهود بالمقدسات التراثية القديمة. فبينما يُسمَّى أتباع الشريعة الموسوية «اليهود»، وتنظيمهم العنصري الاستعماري «الصهيونية»، ودولتهم «إسرائيل»، نجدهم يحرصون على عبارة «اللغة العبرية»، «الثقافة العبرية»، «الأدب العبري»، «الجامعة العبرية»، «الصحافة العبرية».

وإذا كنّا قد أشرنا إلى أن ارتباط لفظة «عبري» باسم عابر أحد أحفاد سام ليس إلا اشتقاقاً شعبياً، فما هي آراء العلماء في مصدر هذه التسمية؟.

حاول بعض الباحثين المحدثين ربطها بلفظة وردت في لوحات تل العمارنة بصعيد مصر، وفي نقوش من دولة الكشّيين التي أعقبت الأسرة البابلية الأولى في العراق، وفي كتابات حثّية من بوغاز كوي بتركيا، وفي

وثائق آشورية من حفائر نوزي القريبة من كركوك في شمال العراق. هذه اللفظة هي «حبيرو» أو «خبيرو» القريبة من «عبري».

وأكثر العلماء يتحفَّظون في تقرير أن العبري والحبيرو من أصل واحد. إذ يشيرون إلى أن «عبري» صفة تدل على النسب أو الانتماء، بوجود ياء النسبة في آخرها، بينما الحبيرو لاتعني غير المزاملة والمرافقة، فهي قد تدلّ على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد، أو تقيم في إقليم واحد، دون أن تنتسب بالضرورة إلى أصل واحد. ولذلك يرفض بعض المحققين الصلة بين اللفظتين، ومنهم المستشرق الفرنسي الراحل إدوار دورم.

أما الرأي السائد فهو أن كلمة عبري مشتقة من «العبور»، أي الاجتياز من جهة إلى أخرى. ومن هذا الأصل جاءت كلمة العبر، بكسر العين، أي الضفة الأخرى. نقول: «عَبَر النهر»، وكذلك: «عَبَرَ الوادي»، وهو استعمال شائع في كل لغات الساميين: بالعبرية «عَبَر هانهر»، والأكاديّة «أبَرَ ناري» بلفظهم الذي لا يُثبت حروف الحلق، وكذلك «أبرتي ناري»، والآرامية «عَبَر نهرا»، وجاء مثل ذلك في النقوش العربية الجنوبية القديمة أيضاً.

وكان الساميون قديماً إذا قالوا «عَبَر النهر» دون أن يذكروا اسم هذا النهر، يقصدون به الفرات دون غيره. وقد عَبَر يعقوب الفرات هارباً من أصهاره في العراق، إذ تقول التوراة: «فهرب هو وكلّ ما كان له، وقام وعَبَرَ النهر، وجعل سمته نحو جبل جلعاد»، (التكوين ٣١: ٢١). وفي هذه القصة يقوم «لابان» صهر يعقوب بمطاردته حتى يدركه في بادية الشام، فيتّفقان على الانفصال: «وقال لابان ليعقوب: إن هذا الحجر، وهذا النصب، اللذين وضعتهما بيني وبينك، يشهدان أنني لا أعبر هذا الحجر إليك، وأنت لا تعبر هذا الحجر، وهذا النصب نحوي للعدوان»، (التكوين ٣١: ٥١، ٥٢) ولهذا السبب يميل الباحثون إلى اعتبار رحلة يعقوب

وعبوره الفرات أساساً لاسم العبريين. فهم ينتسبون إلى عبر النهر، كما ينتسبون إلى مَن قام بهذا العبور، وهو يعقوب، الذي سمّي إسرائيل كما أسلفنا[٦].

ويبدو لنا أن عبور يعقوب هذا لم يكن الوحيد من نوعه في التاريخ الإسرائيلي، فمما لا شكّ فيه أن الراوية المقدس وهو يتحدث عن سيدنا إبراهيم، جدّ يعقوب، وعن خروجه من العراق أيضاً، من أور الكلدانيين نحو أرض كنعان، قد تصور أنه عبر النهر هو كذلك نحو بادية الشام. والواقع أن العبور من العراق إلى الشام ومن الشام إلى العراق لم يكن أمراً غريباً على أولئك الساميين، بل كان طريقاً طبيعياً لقوافلهم وهجراتهم، كما تشهد به النقوش المسمارية والكنعانية المختلفة، بل كما تشهد به أسماء مواضع كثيرة واقعة على هذا الطريق[٧].

وهناك عبور آخر لعلّه أعجب من عبور الفرات، هو عبور موسى ببني إسرائيل من وجه فرعون، واجتيازهم البحر، واندحار فرعون وجنوده، وغرقهم في هذا البحر. فهذا العبور المُعجِز، الفذّ، المقترن بكثير من البطولات، بقيادة مؤسّس الشريعة اليهودية نفسه، موسى عليه السلام، يبدو لنا أولى بانتماء اليهود إليه، وهم مَن نعلم من الحرص على تسجيل مثل تلك المفاخر. ورواية التوراة تجعل موسى نفسه أول مَن تغنّى بهذا العبور، وما اقترن به من انتصار على فرعون: «حينئذ أنشد موسى وبنو إسرائيل هذه القصيدة للرب، قائلين: أغنّي للرب الذي تمجّد

(٦) الدكتور حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١ م، ص ٦٧ وما بعدها.

(٧) «ويبدو من نزول شيوخ العبريين الأوَل، وعلى رأسهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إلى فلسطين لم يكن له أثر سياسي يذكر، فقد ظلوا كما كانوا بدواً رُحّلاً يعيشون على هامش المدن والبلدان الفلسطينية التي كان يسكنها أهل البلاد الأصليين، من فلسطين (تسميهم التوراة فلشتيم) وكنعانيين وأموريين وحثيين وجويين وأدوميين.. إلخ». المرجع السابق، صحيفة ٧٤.

بالجلال، فرمى الفرس وراكبه في البحر... سمعت الأمم فارتعدت، واستولى الرعب على أهل فلسطين. وقتها خاف قادة أدوم، وجبابرة مؤاب أخذتهم الرجفة، وارتعش كلّ سكان كنعان، نزل عليهم الذعر والهلع، فأصبحوا بقوة ذراعك بُكْمًا كالحجارة، حتى يعبر شعبك يا ربّ، حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته». (الخروج ١٥).

فمثل هذا الموقف في عقليات الأقدمين أولى بالافتخار به والانتماء إليه من الانتماء إلى عبور رجل خائف هارب من أصهاره. وقد يتساءل بعض المدقّقين: كيف يسوغ ذلك بينما بنو إسرائيل كانوا يسمّون العبريين قبل عبور موسى؛ كما جاء في سفر الخروج عند الحديث عن نشأة موسى في مصر قبل خروجه مع قومه: «وإذا برجل مصري يضرب رجلاً عبرياً»، (الخروج ٢: ١١)، بل في طفولة موسى نجد بنت فرعون تقول عنه: «هذا من أولاد العبريين»، (الخروج ٢: ٦)، بل قبل مولد موسى تتحدث التوراة عن «المولدات العبريات»، (الخروج ١: ١٥). ولكننا نعلم أن أقدم مدارس رواية التوراة إنما كانت بعد موسى بقرون طويلة ـ حوالي سبعة قرون ـ وفي هذا الوقت كانت لفظة عبري قد اتخذت دلالة مقدسة تحوّل كل شيء إلى عصبيات عرقية عنصرية متصلة بالأنساب ومرتبطة بالأسلاف، مهما كان هذا الارتباط خرافياً لا يقوم عليه دليل. فليس عجيباً أن نجد اللغويين اليهود المعاصرين يفسرون هذه الكلمة تفسيراً عنصرياً أيضاً، فيقول أبراهام بن شوشان مثلاً في شرح هذه اللفظة في معجمه العبري الحديث: «عبري، أي إسرائيلي، يهودي، من نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب».

مَا مَعْنَى اسْمِ يَهُودِيّ ؟

أما الاسم «يهودي» فقد ألمحنا إلى أنه نسبة إلى سبط يهوذا، بالدّال أو الذّال؛ وهو تلك العشيرة من أبناء يعقوب ـ إسرائيل ـ التي نبغ منها داود وسليمان، أعظم حكّام بني إسرائيل على الإطلاق، فانتسب الشعب كله إلى عشيرتهما وحملوا اسم «اليهود».

ومعلوم أن يعقوب كان له اثنا عشر ابناً: يوسف والأحد عشر كوكباً، أنجبهم من أربع نساء، زوجتين شرعيتين هما: لَيّا وراحيل ابنتا لابان، وجاريتين هما: «زلفة» التي كانت تخدم ليّا، وأخرى تخدم راحيل هي «بلهة».

وكان أبناء ليّا ستة: رأوبين، وشمعون، ولاوي (ليفي)، ويهوذا، ويسّاكر، وزبولون. وأنجبت راحيل اثنين هما: يوسف وبنيامين، كما أنجبت زلفة جاد وآشر، وبلهة ولدت دان ونفتالي. وعلى ذلك يكون يهوذا الذي ينتمي إليه اليهود هو الابن الرابع من أبناء يعقوب، وأمه الزوجة الأولى: ليّا.

واسم يهوذا مشتقٌ لغوياً من أصل سامي قديم وهو مادة (ودَى) التي تفيد الاعتراف والإقرار والجزاء ـ ومن هذا المعنى كلمة الديّة عند العرب ـ وفي العبرية اكتسبت هذه المادّة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل وأخيراً تقديم الشكر. ومن هذا المعنى الأخير استوحت ليّا اسم ابنها الرابع فقالت: «هذه المرة (أشكر) الرب، ولذلك سمّته (يهوذا)، ثم توقفت عن

http://al-maktabeh.com

الولادة»، (التكوين ٢٩ : ٣٥). وكان هذا التوقّف لفترة ما ولدت بعدها يسّاكر وزبولون، كما ولدت بنتاً اسمها «دينا»، لا تدخل في عداد المواليد في عقلية أولئك البدو الذين كانوا لا يعدّون البنات.

ويظل معنى الشكر في اسم يهوذا يشدّ انتباه الراوية المقدس، فيقول على لسان يعقوب وهو يبارك أبناءه قبل موته: «يا يهوذا، سيشكرك إخوتك. يدك على نواصي أعدائك، وسيسجد لك أبناء أبيك. يهوذا شبل أسد»، (التكوين ٤٩ : ٨، ٩). وتستمر بركة يعقوب ليهوذا في هذا النص بشكل غامض حارَ فيه المفسرون حتى انتهوا إلى أنه بشارة بمجيء المسيح المخلِّص المنتظَر من أحفاد هذا الابن. ومع ذلك فالمأثورات الخاصة بحياته تصوِّره رجلاً بعيداً عن الاستقامة والقداسة والطهارة، حتى أن أرملة ابنه تحمل منه سفاحاً، وتلد توأمين هما: فارص وزارح، يعترف بهما بعد ذلك، ومن الأول منهما ينحدر داود وسليمان (التكوين ٣٨). والعهدة في ذلك كله على الرواة الدينيين اليهود، طبعاً.

واستقرّت ذرية يهوذا في منطقة النقب الصحراوية الفقيرة في جنوب فلسطين، وظهرت أسماء جغرافية تنسب إليهم مثل: جبل يهوذا (القضاة ١ : ٣)، أرض يهوذا، أو بلاد يهوذا (عاموس ٧ : ١٢)، رقعة يهوذا، أو إقليم يهوذا (أشعيا ١٩ : ١٧)، بلدة يهوذا، أي أورشليم القدس (٢ أخبار الأيام ٢٥ : ٢٨)، مدن يهوذا (أرميا ٤ : ١٨). وسمي اليهود جميعاً آل يهوذا، أو بيت يهوذا (أشعيا ٢٢ : ٢١)، ورجال يهوذا (١ ملوك : ١ : ٩). وظهر في لغة الشعر اسم بنت يهوذا، علماً على مملكة اليهود كلها، وعلى عاصمتها أورشليم (المراثي ٢ : ٢).

وكثُر استعمال لفظة اليهود بمعنى رعايا مملكة يهوذا في جنوب فلسطين، كقوله: «في ذلك الزمان استردّ رصين ملك آرام إيلات للأدوميين، وطرد اليهود من إيلات»، (٢ ملوك ١٦ : ٦). ومع الزمن أصبحت لفظة يهودي تعني أحد بني إسرائيل عموماً، كقوله: «وعادت

أستير فتكلمت بين يدي الملك، وسجدت عند قدميه، وبكت، وتضرّعت إليه في إزالة شرّ هامان الأجاجي، وكيده الذي دبّره ضد اليهود»، (أستير ٨: ٤). وجاء بخصوص عيد بوريم (الكرنفال): «سنّ اليهود وأوجبوا على أنفسهم وعلى ذريتهم وعلى كلّ من يتصل بهم ألاّ يُبطل تعييدهم لهذين اليومين»، (أستير ٩: ٢٧).

ويتّضح من نصوص كثيرة أن العبريين على أيام السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، وبعد عودتهم من السبي تحت حماية قورش إمبراطور الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد، كانوا يسمّون «اليهود»، كما كانت اللغة العبرية تسمى اليهودية. ورد في العهد القديم في قصة حصار الآشوريين لمدينة أورشليم، وحوار الوفد الإسرائيلي مع قائد الجيش الآشوري قول أعضاء هذا الوفد: «كلّم عبيدك بالآرامية لأننا نفهمها، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب الذي على السور»، (٢ ملوك ١٨: ٢٦). وجاء في قصة تعمير أورشليم، بعد العودة من السبي: «ولما سمع سنبلط أننا نبني الأسوار اشتدّ غضبه، واستاء كثيراً، واستهزأ باليهود»، (نحميا ٣: ٣٣).

ويبدو أن لفظة يهودي قد أخذت في أذهان أمم العالم معنى كريهاً منذ وقت مبكر، فقد جاء في التلمود عند الحديث عن قصة أستير وعيد البوريم: «أن كلّ كافر في تلك الأزمان كان يدعى يهودياً»، (المجلة ١٣: ٧١).

وهكذا نرى أن كلمة يهودي قد بدأت حياتها في النفسية الإسرائيلية مصطلحاً عنصرياً يجمع بين العصبية العرقية والغرور السياسي، فكان ردّ الفعل من الأمم الأخرى أنها استعملته وصمة عار وسبّة وسخرية في وجه العبريين، وراح اليهودي في كثير من بقاع الأرض يتهرّب من هذه الصفة ويفضّل عليها اسم الإسرائيلي.

ومع ذلك فإن وجود هذه المصطلحات المتقاربة قد أوقع هؤلاء

الناس في حَيْرة كبيرة. فالإسرائيلي اسم له صفة العنصرية. واليهودي اسم أصبح ينمُّ في النهاية عن العصبية الدينية. كما أن صفة العبري أصبحت تقترن بذكريات عن عشائر قديمة جدّاً مندثرة. ولكن النفسية الإسرائيلية انتهت إلى تقسيم الموضوع تقسيماً تحكميّاً اصطلاحياً: فجعلت للجنسية مصطلح الإسرائيلي، وللدين مصطلح اليهودي، وللثقافة مصطلح العبري، وظنّت أنها بذلك قد أراحت واستراحت. ومع ذلك فإن معرفة مَنْ هو اليهودي ليست بأقل من معرفة مَنْ هو الإسرائيلي إثارة للنقاش والجدل بين الأحزاب الصهيونية حتى الآن.

* * *

مُصطلحُ اليَهُودِيّ التّائِه

لـقد عرفت الأمم المسيحية مصطلح «اليهودي التائه»، فما أصل هذه التسمية؟

كان بنو إسرائيل دائمًا متمردين، وكانوا يعيشون باستمرار في تناقض بـين أهوائهم ودعـوة أنبيائهم، حتى أن النبي الـذي يتجاوز الحـدّ في زجرهم، أو في محاولة تغيير ما هم فيه من فساد، كان يتعرّض للسب والضرب والقتل. بهذا العنف عاملوا نبيّهم أرميا، في الوقت الذي كان بختنصر يحاصرهم، ويعدّ العدّة لقتلهم وسلبهم وأسرهم. ودسّوا عليه من بينهم أنبياء مأجورين فضحهم أرميا بقوله مثلاً: «لذلك هكذا قال الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمي وأنا لم أُرسلهم، وهم يقولون: لن يكون سيف ولا جوع في هذه الأرض، بالسيف والجوع يهلك أولئك الأنبياء. والشعب الذي يتنبأون له يكون مطروحاً في شوارع أورشليم بسبب الجوع والسيف، وليس من يدفنهم هم، ونساؤهم وأبناؤهم وبناتهم، إذ أصبّ عليهم رذائـلهم» (أرميا ١٤: ١٥، ١٦). وهم الذين ساقوا نبيّهم يحيى «يوحنا المعمدان» إلى القتل قُبيل ظهور المسيح، وهم الذين تآمروا على المسيح وطالبوا بصلبه. وكلّما وقعوا في شرّ أعمـالهم عادوا فتنبهـوا إلى التناقض بين سلوكهم ووصايا أنبيائهم، فبكوا واستنجدوا بالرب الذي كـانوا يعتبـرونه حليفـاً لهم، وحاميـاً خاصّـاً بهم، يعاقبهم لينقـذهم، وليسلطهم على أعدائهم. وأعداؤهم هم البشر جميعاً.

وكثرت الروايات عن الأنبياء تُنذِر بتشتيت بني إسرائيل، فتصف هذا اليهودي التائه، المعاقب، ثم تصف تجمّع أولئك الناس من جديد، والانتقام الرهيب من أعدائهم: «والآن هكذا يقول الرب خالقك يا يعقوب، وصانعك يا إسرائيل: لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك. أنت لي إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فإنها لا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تلسع، واللهيب لا يحرقك، لأني أنا الرب إلهك، قدّوس إسرائيل، مخلّصك. جعلت مصر فداءك. كوش وسبأ عِوَضَكَ. إذ صرت عزيزاً في عيني، مكرماً، وأنا قد أحببتك، أُسلِّم أقواماً بدلاً منك، وشعوباً عوضاً عن نفسك. لا تخف فإني معك. من المشرق آتي بنسلك. ومن المغرب أجمعك. أقول للشمال هات، وللجنوب لا تمنع. أحضر أبنائي من بعيد، وبناتي من أقصى الأرض»، (أشعيا ٤٣: ١ ـ ٧). ومثل هذه الخواطر المنسوبة لأنبياء إسرائيل يغصّ بها كتابهم، وتعتبر من مقوّمات النفسية الإسرائيلية كما سيتضح لنا من بعد.

وإذا كان هذا الشتات في الشرق والغرب والشمال والجنوب قد اتخذ صورة الوعيد على ألسنة الأنبياء، فإنه في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى قد اتخذ صورة التنديد بالجُرم اليهودي، وأصبح اليهودي التائه رمزاً لهذا الشعب الصغير الممعن في القسوة والغرور. وفي ذلك تقول أسطورة شعبية تعتبر هي المنطلق لشخصية اليهودي التائه[٨].

كان اليوم الذي أُخِذَ فيه المسيح للصلب يوماً شديد الحرارة في مدينة أورشليم، وكانت الجموع اليهودية قد عقدت على جبين المسيح إكليلاً من الشوك، وأرغمته على أن يحمل صليبه الثقيل على ظهره، ثم راحت تطوف

(٨) يشير كثير من مؤلفي المعاجم من الأوروبيين إلى اليهودي التائه وقصته، نذكر منهم على سبيل المثال:

Littré: Dictionnaire de la Langue Française: Tome III; Paris, 1889.

Paul Guérin: Dictionnaire des Dictionnaires: Tome IV; Paris.

http://al-maktabeh.com

به شوارع المدينة صاخبة شامتة مستهزئة، تمعن في تعذيبه، وتتلذذ بإهانته وإيذائه. واشتدّ بالمسيح التعب والعطش ولفحه هذا الحرّ الشديد، فارتمى عند باب يهودي اسمه في الأسطورة أحشويروش، وهو يلهث من التعب، وسمع اليهودي الضجة أمام بيته فنزل يستطلع الخبر، ورأى المسيح ملقىً خائر القوى في ظل بيته، فركله بقدمه وطرده قائلاً: اذهب من هنا، وابتعد بلعنتك عن بيتي. فنظر إليه المسيح، وعلامات الحزن والإرهاق بادية على وجهه، وقال له: إنك تنتهرني، وتحرمني من ظلّ حائطك، لأنك لم تجرّب تعب المشي ولا عبء الإهانة والمطاردة. وسرعان ما تحدُث المعجزة، فيبدأ أحشويروش في المشي رغم أنفه، لا يستطيع أن يتوقف، وراح يسير حتى خرج من البلد، وأمعن في السير حتى خرج من فلسطين، ثم كُتِبَ عليه أن يسير ويسير، وأن يظل ماشياً لا يستريح إلى يوم القيامة. عليه معطف قديم ممزق، وعلى كتفه خُرْجٌ في زاد حقير، وبيده عصاه. وفي جيبه قطعة صغيرة جدّاً من النقود، وقد طالت لحيته، وتراكم عليه الغبار، يُرى في حرّ الصيف بين الصخور وعلى الرمال، ويُرى في برد الشتاء على الثلوج وفوق الجبال. هذا هو اليهودي التائه، المخلوق الأسطوري الذي انبثق من صدام عنيف بين النفسية الإسرائيلية الكزّة، الشديدة التعصّب والغرور، والحقد على الأمم الأخرى، وبين النفسية الأوروبية في مسيحية العصور الوسطى، التي كانت تعاني من جوار المرابي اليهودي الأمرَّين، وتحاول بهذه الأسطورة أن تصبّ عليه لعنة المسيح.

عُقدَة الانفصَال عَن البَشَر وَالامتيَاز عَليهِم عندَ اليَهُود

لعلّنا قد لاحظنا من كل ما سبق أن عقدة الانفصال عن البشر، والامتياز على أمم العالم اتخذت طريقها إلى النفسية الإسرائيلية، وأصبحت عاملاً أساسياً في تكوين شخصية هذه الطائفة من الناس منذ القدم، عن طريق الأنساب والأعراق، وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التي تضخمت وغلظت مع الزمن، بالرغم من أن جميع البحوث الاجتماعية والتاريخية والأنثروبولوجية تؤكد أن اليهودي يعتبر من أبعد الجماعات البشرية عن النقاء العنصري الذي يدَّعيه، وفي ذلك يقول العلاّمة السويسري أوجين بيتار[٩]: «إن جميع اليهود في نظر علماء الأنثروبولوجيا، على الرغم من كل ما يدّعيه اليهود المنضوون تحت الفكرة العنصرية الإسرائيلية، بعيدون عن الانتماء إلى (جنس يهودي)». وكما يقول رينان: (لا توجد سحنة يهودية، بل هناك عدّة سحنات يهودية). وليس هناك أصحّ من قوله هذا، فنحن لا نستطيع أن نعتبر اليهود الحاليين مكوِّنين لكتلة بشرية ذات عنصر واحد، ولا حتى في فلسطين، بعد أن جرَّت إليها الحركات الصهيونية كثيراً من الإسرائيليين دون اختيار أو تمييز. فاليهود ينتمون إلى طائفة دينية واجتماعية، اندمج فيها في كل عصور التاريخ أشخاص من أجناس متباينة، وكان أولئك المتهودون يدخلون فيها من جميع الآفاق

---

(٩) أوجين بيتار: الأجناس البشرية في التاريخ ـ بالفرنسية:

ـ Eugène Pittard: Les Races Et L'Histoire; Paris 1924; p. 313 55.

المسكونة بالبشر، من اليهود الأحباش ـ الفلاشة ـ، إلى اليهود الأشكناز ـ من الجنس الجرماني ـ، إلى التاميل ـ اليهود الأفارقة الزنوج ـ، إلى اليهود الهنود الذين يسمّون بني إسرائيل، واليهود الخَزَرْ الذين ينتمون إلى الجنس التركي. فهل هناك من هذه الأنواع الإسرائيلية نوع يعتبر من ناحية التشريح والتحليل ممثلاً حقيقياً ونقياً للجنس اليهودي؟» ويستمر عالم الأجناس البشرية السويسري في تحليل كل نوع من الجاليات اليهودية في العالم، من حيث القامة والجمجمة والهيكل العظمي والتقاطيع ولون البشرة والشعر والعينين وشكل الأنف وغيرها من المميزات البيولوجية، ليخرج بنتيجة حاسمة وهي أن الدعوى العنصرية التي يجاهر بها اليهود من ناحية وأعداء اليهود من ناحية أخرى ليست إلا ادّعاءً خرافياً من نسج الخيال.

ولكننا أشرنا من قبل إلى أن الخرافة قد تكون أقوى أثراً في خلق النفسية العنصرية من الحقيقة التاريخية نفسها، خصوصاً إذا اصطبغت مع الزمن بقدسية الدين، وهذا ما كان من أمر الشخصية الإسرائيلية.

فقد رأى اليهود أنهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء العالم، التي كثيراً ما تعرضت لكراهية الأمم الأخرى، قد عاشوا منذ السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، والتشريد الروماني منذ القرن الأول الميلادي، يصارعون عوامل الفناء، ويتغلبون بتضامنهم الاجتماعي على كل مشاريع الإبادة التي خُطِّطت من أجلهم. وكان طبيعياً أن يأخذهم الزهوّ والغرور بهذا البقاء الدائم. فظهرت في تعبيراتهم اللغوية ألفاظ يطلقونها على أنفسهم، لتؤكد هذا الغرور، وتزيد من الالتحام والتضامن الذي يربطهم بعضهم ببعض. وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار إلهي لهم دون سائر شعوب الأرض، وبإرادة سماوية لا قبل للبشر بمقاومتها.

فمن هذه الألفاظ ادّعاؤهم أنهم أبناء الله، وحلفاء الله، وأحباب الله.

وفي تعبيراتهم الشعرية يرون أن الربّ قد اتخذ أمّتهم عشيقة له، بل

إنه تزوجها زواجاً أبدياً، حتى إنها إذا خانته ودنّست شرف العلاقة التي بينها وبينه، لم يطلّقها كما يفعل أحقر مخلوق من البشر، ولكنه يكتفي بأن يغضب ثم يرضى، وأن يعاقب ثم يصفح. فهي الأمة الحبيبة المعشوقة المدللة، التي تعلم مقدماً أن الربّ لن يجرؤ يوماً ما على قتلها مهما أجرمت.

ويصف نبيّ اليهود هوشع هذا الموقف بقوله على لسان الرب: «سأكشف الآن عورتها على مرأى من عشّاقها، ولن ينقذها أحد من يدي، فأبطلُ كلّ أفراحها وأعيادها وغُرَر شهورها وسبوتها وكل حفلاتها، وأدمّر كرمها وتينها؛ إذ قالت: هو أجري جعله لي عشاقي، فأصير ذلك أجمة يأكلها وحش الصحراء، وأحاسبها على أيام الأصنام التي بخّرت لها، وتزينت بأقراطها وحليّها، وانطلقت وراء عشّاقها ونسيتني، يقول الرب: ثم إنني أتملّقها وآتي بها إلى البرية، وأخاطب قلبها، وأعطيها كرومها من هناك، مع وادي عكور، باباً للأمل. فتغنيّ هناك كما في أيام صباها، وفي يوم صعودها من أرض مصر.» (هوشع ٢: ١٠ ـ ١٥). وتكثر في مثل هذا المعنى أقوال الأنبياء والكهنة والشعراء والحالمين والصوفية على مدى أجيال إسرائيل.

ومن هنا لا يتردد اليهود في تسمية أنفسهم «شعب الله المختار». ويفسرون هذا الاختيار الإلهي بأنه تفضيل للأقوى والأصلح، ويردّونه إلى ليلة المصارعة العجيبة التي أدّى فيها جدّهم يعقوب ـ إسرائيل ـ امتحان القوة والصبر على المكاره بنجاح باهر، ويرون أن هذا الاختيار قد تختفي دلائله عندما يضعف اليهود ويذلّون، ولكنهم يعودون إلى الجبروت والسطوة من جديد، «لأن الرب سيرحم يعقوب، ويعود فيصطفي إسرائيل، ويريحهم في أرضهم، وينضم الغريب إليهم، ويتصل ببيت يعقوب. وتأخذهم الشعوب وتحضرهم إلى مكانهم فيمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وجواري، فيأسرون الذين أسروهم، ويستولون على من سخّروهم». (أشعيا ١٤: ١، ٢). وواضح من مثل تلك النصوص

أن اعتقاد اليهود في اختيار الرب لهم ليس مجرد مَفْخَرَة يتشدَّقون بها، بل هو برنامج؛ فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى، وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان، متسلِّطين على رقاب العالم، وهم باختصار الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل، مسرح التاريخ، والأمم الأخرى ليست إلا أشخاصاً ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها، على نحوٍ تظل فيه البطولة لإسرائيل. ومن هنا تبرز خطورة النفسية الإسرائيلية على أمم العالم، ويتضح مدى احتياجها لعلاج ناجع ـ لا بدّ أن يكون مرّاً ـ حتى تصحو من غرورها لتندمج في أمم هذا العالم.

والداء الذي نشير إليه مُزمِن عند القوم. ففي مصطلحاتهم نجدهم يسمّون أنفسهم أيضاً «**الشعب الأزلي**» ـ بالعبرية: عام عولام ـ كما يسمّون أنفسهم «**الشعب الأبدي**» ـ بالعبرية: عام نيصح ـ وهكذا تطاولوا على الرب ـ ولو مجازاً ـ فتخيّلوا أنهم يشاركونه في أزليته وأبديته، وأنهم مثله لا أوّل لهم ولا آخر، ولا بداية ولا نهاية. وهو قول كبير، أحسّ بعض مفكّريهم بفداحته، ففسّروه على أنهم من أقدم شعوب العالم، وهو المقصود بالأزليّة، ومن أدوم شعوب العالم، وهو المقصود بالأبدية. وهي دعوى خرافية حتى بعد هذا التخفيف الشديد. فاليهود كما يعلم الجميع ليسوا أقدم من الفراعنة، ولا من سومر وبابل وأشور، ولا من الهنود أو الصينيين، ولا من العرب. وهم أيضاً ليسوا أطول دواماً من كثير من تلك الأمم.

وهم وراء ذلك كله أمة لا حضارة لها، فكل الأمم لها طُرُز في الفن تُعرَف بها للنظرة الأولى، فليس من أحد يخطىء التعرّف على قطعة من الفن الفرعوني أو الهندي أو الصيني أو الأوروبي أو حتى الإفريقي الزنجي. وكذلك الأمر في الأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها. فأين الفن اليهودي في كل هذا؟ قد يقول المتعصّبون منهم أنهم منحوا العالم ما هو أقوى من الفن. منحوه التوحيد والنبوّة والكتب المقدّسة والحياة الروحية المنظمة. ولا نريد أن نُشير إلى أن كل هذه أمور قد سُبق اليهود إليها، وأنهم ـ حتى في

http://al-maktabeh.com

مقدّساتهم هذه ـ قد عَدَوا على تراث هذه الأمم فنهبوه واغتصبوه. وما تزال البحوث الجادّة تبين أن شرائع السومريين، وقانون حمورابي، وتوحيد أخناتون، وابتهالات مصر القديمة وإيران والهند، وملاحم الشرق قبل العبريين القدماء، كل هذه تنعكس على المرآة الإسرائيلية ناطقة بأُصولها ومصادرها. لا نريد أن نقول ذلك، وإنما يكفي في مجاراة القوم أن نقول: إن هذا التراث الديني باعتقادهم هم، وحيٌ أنزله الله من السماء، لا فضل لهم فيه، بل إنهم لم يُعْنوا بتبليغه للأُمم الأخرى ولا اجتهدوا في التبشير به، بل على العكس من ذلك احتكروه، وجعلوه متمِّماً لعصبيتهم القبلية الجاهلية العتيقة. وهم لا يستطيعون أن يعلِّلوا عدم إسهامهم في تقدّم الفن بأن التوراة قد حرَّمت عليهم الصور والتماثيل. فالقرآن قد أتى بمثل هذا التحريم على العرب والمسلمين، فكانت لهم في الزخارف الهندسية والنباتية وفي تجاور الألوان، وفي التذهيب والتوشية والتطريز والتطعيم وصنائع الخشب والخزف، وفي التعمير والبناء، ميادين للعبقرية لم يعصوا فيها الله ولم يبخلوا على الإنسان. فالمسألة في هذا الموضوع ليست مسألة شريعة بقدر ما هي موقف من التقدّم الذي جعله الله سنّة للبشر.

ولو تعمقنا موضوع الفن لوجدنا أن اليهود لم يكفوا عنه تماماً، ولكن قرائحهم كانت مجدبة، غير خلاّقة، فاكتفوا بأخذ ما عند الآخرين. وهل هناك عمل فني أقدس عندهم من هيكل سليمان؟ إن الكتاب الذي بين أيديهم يشهد صراحة باعتماد سليمان على صديقه اللبناني حيرام ملك صور في تشييد هذا الهيكل وزخرفته وتزيينه. فأكثر مواد البناء والزخرفة، والعمال منحة من حيرام، وكذلك المهندسون والفنانون والصناع، (١ ملوك، الاصحاحات ٥ إلى ٧). فإذا قفزنا نحواً من ثلاثة آلاف سنة، ووصلنا إلى الفن اليهودي الصهيوني المعاصر، وجدنا الأمر لم يتغير إلاّ قليلاً. فالفنان الصهيوني الحديث ليس إلاّ تلميذ للفن الأوروبي الحديث، يقلده دائماً فيحسن حيناً ويسيء أحياناً. يستوي في ذلك مهندسون من أمثال: الكساندر بيرفالد، وكراكوفر، واريك مندلسون، وروبين؛ ونحاتون

مثل: بوريس شاتس، وزئيف بن تسفي، وبراندنبرج، وترودا حاييم، ورفائيل خاميتسر، وماير ميخائيل؛ ومصورون: كهارون أفني، ويوسف بودكو، وجوتمان، وبرونشتاين، وهارون كوهين، ونويمان، وسيما، وصهيونه تاجر، وحنة تيخو، وهيرمان شتروك. فالمطَّلع على أعمال أولئك الفنانين اليهود يشعر بالتقليد، وبأنهم حتى في هذا التقليد لا يحاولون أن يضعوا ظلاً ولو قليلاً من الشخصية الإسرائيلية، إلا أن يكون هذا الظل هو أنها شخصية لا تعرف الخلق ولا الإبداع.

ومن الغريب أن نلاحظ بعض البصمات اليهودية القحّة عند فنانين يهود أوروبيين لم يرتبطوا بالفكر الصهيوني السياسي، أكثر مما عند أولئك المرتبطين الملتزمين. ففي أعمال مارك شاجال، وحاييم سوتين، وكندينيسكي تبدو هذه الظاهرة واضحة: اليهودي الحالم، الحامل على ظهره لثلاثة آلاف عام من التاريخ، المتطلع إلى مجهول رهيب، عليه ما لا يحصى من علامات الاستفهام، من مخلفات أحبار هذه الطائفة على مر الأجيال. وقد تستحق هذه الدراسة الفنية المقارنة ما تفترضه لأول وهلة من عناء البحث، فإنها قد تضيف وثيقة أخرى إلى الوثائق التي تدين الصهيونية السياسية المعاصرة، التي اكتفت بوضع اليهود في أسوار من النعرة العنصرية، والشعور القومي الزائف، فوصلت بذلك إلى نتيجة لم تكن في حسبان أحد من اليهود أو ممن يعطفون عليهم، وهي تمييع الشخصية الإسرائيلية في سوائل ومحاليل غريبة على اليهود وعلى الإنسانية، تشبه ما كان يحضِّره السحرة قديماً ليحولوا به التراب إلى ذهب، أو ليسخروا به المردة والجن والشياطين، ولكن يستحيل باستعمالها إيجاد حضارة أو فن أو حقيقة تفرض نفسها على العقل. وكل ما تتركه من أثر ـ وشكراً لها على ذلك ـ هو أن تمحو أسطورة الشعب الأبدي الأزلي، شعب الله المختار، على حين كان أقطابها يتخيلون عكس ذلك تماماً.

* * *

فكرة الصراع في تكوين الشخصية الإسرائيلية

ربما كانت قصة صراع يعقوب - إسرائيل - مع رجل الليل الغامض، الملاك، أو الإله، رمزاً لما يتخيله اليهودي أساساً للسلوك في الحياة. ومما يشد القارىء للتوراة إلى هذه الفكرة، ما مر بنا من وصف يعقوب لابنه يهوذا - جد اليهود - بأنه شبل أسد، وأن يده على نواصي عدائه. وإذا رجعنا إلى النص بأكمله وجدنا يعقوب يقول له أيضاً: «من صراع نشأت يا بني»، (التكوين ٤٩: ٩). وفكرة الصراع عند اليهودي فكرة بدائية فيها رواسب كثيرة من حياة الصيد والقنص، وأخطار المعيشة في البادية. فهناك كل غريب يعتبر عدواً يجب قتله، أو أسره وتسخيره على الأقل، يستوي في ذلك الحيوان والإنسان. وفي أساطير هذا الصراع لا بد أن يكون هذا العدو رهيباً عملاقاً، ثم نراه ينهار بالحيلة وبالتدبير: باغتياله، أو إيقاعه في كمين، أو الحيلولة بينه وبين مصادر قوته. وهو لون من الصراع يختلف عن فكرة التدافع والتنافس بين إنسانية متكافئة في طاقاتها، يحاول كل عضو من أعضائها أن ينال حقه، وأن يحمي هذا الحق.

وفي حكايات الكتاب المقدس اليهودي ما لا يحصى من أمثلة هذا الصراع. نقرأ مثلاً أن يوشع بن نون أراد - بعد موت موسى - أن يدخل بقومه إلى فلسطين، فعسكر حول مدينة أريحا وأمر بالنفخ في الأبواق، «فلما سمع الشعب صوت البوق، هتف الشعب هتافاً عظيماً، فسقط السور في

مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة كل امرىء لوجهته، وأخذوا المدينة، وأبادوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف»، (يشوع ٦: ٢٠، ٢١). ويلتقي شمشون الجبار بأسد قوي فتي، وإذا به يصارعه بدون سلاح، حتى إذا تمكن منه فسخه نصفين وألقى برمته على الأرض (قضاة ١٤). وهناك صراع داود ضد العملاق الفلسطيني جالوت ـ بالعبرية: جوليات ـ الذي يصفه القصص الديني اليهودي وصفاً يدعو إلى الرهبة: «طوله ست أذرع وشبر، وعلى رأسه خوذة من نحاس، وكان لابساً درعاً من الصفائح، ووزن الدرع خمسة آلاف مثقال من النحاس، وعلى رجليه نعل من نحاس، وبين كتفيه مزراق نحاس، وقصبة رمحه كنول النساجين، وسنان رمحه ستمائة مثقال من الحديد، وكان حامل الترس يمشي بين يديه»، (١ صموئيل ١٧: ٤ ـ ٧). ودعا جالوت لمبارزته من يشاء من اليهود، فارتعش الجميع من الخوف، وأخيراً انبرى له داود، وكان بَعْدُ غلاماً صغيراً رقيقاً، ونجح في النهاية في أن يصيب جبهة جالوت بحجر، ضربه به من مقلاع بيده، فقتله على الفور.

وتستقر على مر الزمن فكرة الصراع في قلوب اليهود، وتتطور في نفسية اصطبغت بالتعصب العنصري والانعزال الاجتماعي، فتثير كثيراً من أمم العالم ضد هذه المجموعة القليلة المشاكسة، لتصبح «المشكلة اليهودية» في نهاية الأمر مشكلة إنسانية مستعصية، كثرت الحلول المقترحة لها، وقُدِّر لأسوأ هذه الحلول ـ وهو الحل الصهيوني ـ أن يشق طريقه إلى مسرح الحوادث فيرتع عليه حتى الآن.

* * *

ماركس
وفكرة الصّراع عند اليهود

ولـو أننا وسعنـا أفق هذا النـظر إلى مفهوم الصـراع في النفسية اليهودية، لأتيحت لنا أضواء جديدة لفهـم نشأة الشيوعية في فكر داعيتها الأول كارل ماركس. فالرجل كما نعلم قد نشأ نشأته الأولى في مجتمع يهودي مظلم متعصب، ثم أتيح له أن يتعلم، بل أن يعلم نفسه بنفسه. وأبرز ما تنبه إليه كارل ماركس، ونبه إليه أيضاً، هو ما سماه بصراحة «صراع الطبقات». وخلاصة ما وصفه لحسم هذا الصراع، أن تخوضه الطبقة الكادحة ـ أي الأجراء من العمال والفلاحين والموظفين والحرفيين ـ وأن تستميت في المعركة، مستعملة فيها جميع وسائل الهجوم والدفاع، حتى يتم لها النصر على الطبقات الأخرى: النبلاء والأعيان، والاقطاعيين، والرأسماليين. وهذا النصر في مفهومه لا يكون إلّا بالإبادة. وكأن قصة الفتى الصغير داود وقتله للعملاق البشع جالوت قد لبست في العصر الحديث ثوباً فلسفياً عقلانياً، نزلت به إلى ميدان السياسة والاقتصاد والاجتماع: داود الضعيف ظاهرياً القوي داخلياً هو الطبقة الكادحة، وجالوت الرهيب ظاهرياً، الخاوي من الداخل، هو المجتمع الرجعي التقليدي بطبقاته وأشكاله المختلفة. وليس عجيباً أن يكون يهود أوروبا الشرقية هم أول من يهضم الدعوة الجديدة، لأنهم على أجيالهم كانوا يعيشون نفسياً مع داود ضد جالوت.

وطبقاً لهذا التصور افترض كارل ماركس أن الطبقة المنتصرة في

http://al-maktabeh.com

الصراع من حقها أن تحكم حكمًا مطلقاً، لا يسمح بالمعارضة. ولكن الرجل جاء في عصر الديموقراطيات، والبرلمانات، والأحزاب المتعدّدة الاتجاهات، المختلفة العقائد والبرامج. وهو نفسه حالم بالحرية، لكن في أسوار نفسية أقامتها أجيال من مجتمعات الجيتو. ومن أجل أن يصل إلى وفاق بين حلمه في الحرية، وتصوره للنصر النهائي الساحق الذي تحوزه الطبقات الدنيا المحتاجة للانصاف، ابتدع النظام الهرمي في انتخابات ممثلي الجماهير: من القاعدة إلى القمة، مجالس بعضها فوق بعض، لا يبرز فيها إلّا المؤمنون بالعقيدة الجديدة، المناضلون من أجل تثبيتها والدفاع عنها. بحيث يتلخص نظامه كله في دكتاتورية معدلة، هي ديكتاتورية الطبقة العاملة، كما يسميها هو صراحة.

* * *

ولو أننا رجعنا إلى الخلف، إلى التراث اليهودي القديم، لوجدنا فيه فناً من فنون الأدب الديني، يطلق عليه اصطلاحاً «الاسكاتولوجيا»(١٠)، ومعناه الحرفي «وصف النهاية»، أي تصور حتمية معينة ينتهي بها هذا العالم. وفي كل الكتابات اليهودية حول هذا الموضوع نلاحظ اقتران فكرة الصراع بهذه النهاية الحتمية، كما نلاحظ أن المنتصر الأخير في هذا الصراع هو حتمًا وبطبيعة الحال: إسرائيل. ومن أوضح الأمثلة على ذلك نص طويل وصلنا كاملاً في مجموعة المخطوطات العبرية المكتشفة أخيراً في منطقة أريحا على البحر الميت(١١)، وهي التي تعرف باسم «وثائق قمران». وعنوان هذا المخطوط الذي يعنينا هنا هو «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام». وهو نص طويل يقع في تسعة عشر عموداً تتضمن نبوءة أسكاتولوجية يقوم

(١٠) Eschatologie من كلمتين يونانيتين هما eschatos أي النهاية، logos أي كلام أو وصف.

(١١) محمود العابدي، مخطوطات البحر الميت، عمان ١٩٦٧، ص ٨١، ١٩٤/١٩٥، من أجل فكرة عامة، أما النصوص وترجمتها ومناقشتها فقد ظهرت فيها مئات الكتب والأبحاث بمختلف اللغات.

فيها اليهود ـ سبط يهوذا وسبط بنيامين ومعهم الكهنة من سبط لاوي ـ بشن حرب إبادة على جميع الشعوب التي تسكن فلسطين وما حولها في ذاك الوقت (القرن الأول قبل الميلاد). واليهود يدعون في سياق هذا الحديث بأبناء النور، أما أبناء الظلام فهم الأدوميون والعرب المؤابيون والعمونيون والفلسطينيون وكذلك اليونان. ويسمي الكاتب جنود أولئك الأعداء «جيش بليعال» أي جيش الشيطان. ويتفنن في وصف النظام الدقيق الذي يسود أبناء النور. فهم كتائب من الفرسان والمقاتلين، قد اصطفت واستعدت بخيلها وسيوفها ورماحها ودروعها وتروسها وقسيها وسهامها، ترفرف عليها رايات جميلة الطراز، قد نقشت عليها شعارات الإيمان والجهاد والنصر. أما أبناء الظلام فيصورهم هذا الشيخ اليهودي الحالم بأنهم شراذم رثة الهيئة، كثيرة اللغط والفوضى، متخاذلة، يشيع فيها الخوف والجبن، ولا تفكر إلّا في الهزيمة والاندحار.

ويطول بنا الحديث لو أننا أردنا تتبع كل آثار هذا الأدب الفنائي عند اليهود. فأكثر **سفر النبي حزقيال** من قبيل هذه الرؤى النهائية الحتمية، تشب فيها حروب، تبدأ بتطهير المجتمع اليهودي نفسه من الدنس الذي كان قد غرق فيه إلى الأذقان. وهو تطهير يتم بالحرب والحصار والموت، يسلط فيه الله غضبه على أورشليم وساكنيها «ثلث يموت بالوباء وبالجوع يهلكون في وسط المدينة، وثلث يسقط بالسيف من حولها، وثلث يذريه الرب في كل ريح، ويرفع من ورائهم سيفاً مسلولاً» ـ (انظر حزقيال، الاصحاح الخامس). وبعد هذا التطهير يكونُ الشعب المختار ـ أو من بقي منه ـ قد أصبح جديراً بخوض المعركة النهائية التي ينتصر فيها على العالم ويخضعه لإرادته.

* * *

وقد أرادت المسيحية في نشأتها الأولى أن تعطي معنى دينياً بحتاً لهذا الصراع النهائي، تخرجه عن أهدافه العدوانية غير الإنسانية التي ترعرعت

فيها شخصية إسرائيل، بأن تضفي عليه معاني دينية روحانية تجعله بها ممهّداً ليوم القيامة، يوم الحساب للناس جميعاً، وأبلغ أمثلة هذا التطور هو بلا شك رؤيا القديس يوحنا، في العهد الجديد. إذ تنبعث بأمر الرب الجالس على عرشه أفواج من الكائنات العليا، ومع كل منها أمر بالفناء قد حدّد له زمان ومكان، حتى يتبدل كل شيء. «ثم رأيت سماء جديدة، وأرضاً جديدة». لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد مضتا، والبحر لم يعد موجوداً من بعد. وأنا يوحنا، رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء، من عند الله، وقد تهيأت كعروس مزينة لزوجها. وسمعت صوتاً عظيمًا من السماء يقول: ها هو ذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً، والله ذاته يكون معهم رباً لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، وينعدم الموت فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع من بعد، لأن الأمور الأولى قد انتهت. وقال الجالس على العرش: إنني سأصنع كل شيء جديداً. وقال لي: اكتب، فإن هذه الأقوال صادقة وأكيدة. ثم قال لي: قد تم. أنا الألف والياء، البداية والنهاية. أعطي العطشان من نبع ماء الحياة بلا ثمن. من يغلب يرث كل شيء. وأكون له إلهاً ويكون هو لي ابناً. وأما الخائفون وغير المؤمنين والمدنسون والقتلة والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وكل الكذابين فإن مصيرهم في البركة التي تتأجج بالنار الكبريت، وهو الموت الثاني»، (رؤيا يوحنا ٢١ : ١ ـ ٨).

* * *

مقوّمات ثلاث للشّخصيّة الإسرائيليّة

لقد رأينا حتى الآن من مقوِّمات الشخصية الإسرائيلية:

أ ـ التعصب العنصري حول أسطورة خاصة بالأعراق والأنساب.

ب ـ التعصب الديني حول شريعة اعتبرها اليهود خاصة بهم لأنهم شعب الله المختار.

جـ ـ حتمية الصراع، وفناء أمم العالم أمام إسرائيل.

ولما كانت هذه المقوِّمات الثلاثة تدور حول فكرة واحدة هي فكرة الامتياز والاستعلاء والانفصال عن البشر، فقد اقتضى ذلك في الفكر الإسرائيلي بعض التفصيلات الهامة التي دعمت تلك المقومات.

إيمان اليهود العميق بحقارة الأمم:

فمن ذلك **الإيمان العميق بحقارة أمم العالم**. واللغة العبرية تميزهم بلفظ خاص بهم هو «الجوييم».

واشتقاق لفظة الجوييم هذه ما يزال إلى الآن غامضاً، يثير نقاشاً طويلاً بين العلماء. فبعضهم يؤثر التوقف ويقول لا أدري، بينما يحاول آخرون أن يلتمسوا للمفرد «جوي» وجمعه «جوييم» أصلاً في اللفظة العبرية «جوية» التي معناها «جثة» أو «جسد» أو حتى «رمَّة» ووجدوا أن لفظة جوي كثيراً ما استعملت بمعنى «شخص» أو «نفس». فقد جاء في التوراة قوله «أتقتل نفساً (جوي) بريئة؟» (التكوين ٢٠ : ٤). وفي نص آخر «في

بطنك اثنان من النفوس (جوييم)، (التكوير ٢٥ : ٢٣). وواضح أن المقصود هنا (ولدان) أو (جنينان)، وإن كان المفسرون اليهود قد فسروا ذلك هنا بأنه سيخرج من بطن رفقة ـ زوجة إسحق ـ شعبان: الأدومي والإسرائيلي. ومن العلماء من لا يستبعد أن تكون الكلمة من أصول غير سامية قديمة جداً، جاءت إلى العبريين من حيث لا يعلمون. ويثير اهتمامنا استعمال لفظة «جوي» للدلالة على الحيوانات المتجمعة في قطيع، أو الطيور والحشرات والهوام التي تتحرك في أسراب. ويعبر النبي صفنيا عن ذلك بقوله: «حيوانات الشراذم (جوي)»، (صفنيا ٢ : ١٤). ويحوم النبي يوئيل حول نفس الفكرة إذ يقول في موعظة له: «بقية الهوام أكلها الجراد، وبقية الجراد أكلها الجندب، وبقية الجندب أكلها الدبيب استيقظوا أيها السكارى، وابكوا وولولوا على الرحيق الذي انقطع عن أفواهكم، يا جميع شاربي الخمر. فإن أمة (جوي) قد زحفت على أرضي، وهي عظيمة لا تحصى، أسنانها أسنان أسد، ولها أنياب السباع»، (يوئيل ١ : ٤ ـ ٦). ولا نستبعد أن يكون قدماء الساميين قد استعملوها بمعنى الهوام والحشرات التي تزحف في جموع كبيرة، مكرّرة مرتين للتهويل، فكانوا يقولون مثلاً «جوي ـ جوي»، ومن هذا التركيب الازدواجي بقي في لغتنا العربية «غوغاء»، ومعناه أيضاً جموع الجراد ونحوه من الحشرات، ثم انتقل إلى معنى الكثير المختلط من الناس، ثم أصبح يدل على السوقة والأشرار خصوصاً.

وقد سلكت «جوي» في العبرية نفس الطريق في تطورها، من إفادة معنى الهوام والحشرات، إلى اختلاط الناس، ثم إلى سفلتهم وأشرارهم. ومن هنا خصصتها العنصرية الإسرائيلية منذ القدم للدلالة على الناس جميعاً من غير بني إسرائيل. وأمثلة ذلك في الكتاب المقدس كثيرة منها: في اللاويين ٢٦ : ٣٣، نحميا ٥ : ٨، المزامير ٩ : ٢١، أشعيا ٤٢ : ٦.

ثم توسع أحبار اليهود في مدلول الجوييم، فأضافوا إلى الكلمة معنى

http://al-maktabeh.com

القذارة المادية والروحية، والكفر. وأصبحت كلمة «جوي» عندهم سبة، لدرجة أن اليهودي الذي يتعدى حدود الدين كان يشتم بها. واقتران معنى هذه الكلمة على ألسنة متعصبي اليهود بالنسبة والتعيير جعلهم إذا أرادوا الإشارة إلى شعب من غير اليهود يريدون مع ذلك ألاّ يشتموه أو يحقّروه، استعملوا كلمة «أمة» بنفس نطقها العربي، أو كلمة «لأوم» بدلاً من «جوي».

* * *

ولم يقف اليهود في شغفهم باحتقار الأمم الأخرى عند تسميتها «جوي»، بل ظهر إلى جانبها عدد من ألفاظ السباب أشهرها «عاريل» ومعناها «الأقلف»، أي الذي لم تجر له عملية الختان أو الطهارة، بل بقي بدائياً، فطرياً، وهو بهذه الحالة قذر وكافر في آن واحد.

وهناك أيضاً من ألفاظ السباب «ممزير» ومعناها «ابن الزنا». وقد وردت لفظة «عاريل» وصفاً لأبناء الشعب الفلسطيني الأصلي (١ صمويل ١٧ : ٢٦)، كما جاءت للدلالة على أشرار الناس وأوباشهم عموماً، من غير بني إسرائيل طبعاً (القضاة ١٥ : ١٨). واستعملت لفظة «ممزير» كذلك نعتاً للفلسطينيين من أهل أشدود (زكريا ٩ : ٦)، كما دلت على كل شعب حقير مختلط الأنساب في مواضع كثيرة من النصوص المقدسة.

وأخيراً اتجهت العقلية الإسرائيلية من خلال تعصبها العنصري إلى تخصيص مدلول الشتم والمسبة في هاتين اللفظتين. فأصبحت لفظة «عاريل» من نصيب المسيحي لأن الختان غير شائع عنده. أما لفظة «ممزير»، أي ابن الحرام، فقد آلت إلى المسلم، لأنه في تفكير أصحابها مولود من سيدنا إبراهيم لكن عن طريق هاجر، التي يعتبرونها أجنبية وجارية، فكل من ينتمي إليها، منتسباً بالأصل أو بالدين إلى سيدنا محمد ـ وهو من سلالة سيدنا إسماعيل ـ يعتبر في هذا الفكر اليهودي العنصري المتحجر من أبناء الحرام، «ممزير»!.

مديح اليهود لأنفسهم:

وفي مقابل هذه الشتائم التي وصم بها العبريون الأمم الأخرى، كثرت صفات المدح والتعظيم التي خلعوها على أنفسهم. وقد رأينا منها عبارات: شعب الله المختار، الشعب الأزلي، الشعب الأبدي. وتقابلنا صفات أخرى ظهرت في فترات متفاوتة من التاريخ. فهم «شعب مقدس»، لا يقف أمر قداسته عند طاعة الله وعبادته، بل يتعدى ذلك إلى إهدار دم الأمم الأخرى واستباحة أموالها وأعراضها وأوطانها، «لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم، لا تعط بنتك لابنه، ولا تأخذ بنته لابنك، لأنه يرد ابنك عني، فيعبد آلهة أخرى، فيحمي غضب الرب عليكم، ويهلككم سريعاً. ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم، وتحطمون أنصابهم، وتقطعون سواريهم، وتحرقون أصنامهم بالنار، لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك اصطفى الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب التي على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثر عدداً من سائر الشعوب التحم الرب بكم، بل هو اختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب، من محبة الرب لكم، وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم»، (التثنية ٧: ٢ ـ ٨). وتكرر هذا الدرس في العنصرية البغيضة في قوله، «لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لتكون له شعباً خاصاً، فوق جميع الشعوب التي على وجه الأرض»، (التثنية ١٤: ٢). فهم كما قلنا «شعب الله» وبالعبرية «عام ألوهيم» وهي تسمية وردت في كتابهم (٢ صمويل ١٤: ١٣).

* * *

العنصرية في التنظيم الاجتماعي الإسرائيلي:

كان موقف العداوة الذي وقفه اليهود من جميع أمم العالم مع ضعفهم وقلة عددهم ـ سبباً في شعورهم الدائم بالخوف. كانوا يخافون من العزلة التي فرضوها على أنفسهم، كما كانوا يخافون من الاندماج، ويرون

فيه تهديداً بضياع كل تراثهم، وهي عقدة مرضية في شخصية إسرائيل، أساسها الشعور بالبناء الهش المتهافت الذي لا يستطيع الثبات أمام الحضارات الشامخة التي تبنيها الأمم الأخرى. وكان الإسرائيلي قد آثر أن يظل بدوياً جاهلاً متخلفاً يشمئز من التقدم، ويخاف من المدنية.

فلما أصيب المجتمع الإسرائيلي بالتشريد على أيدي الرومان سنة ٧٠ ميلادية، فكّر أقطابه في أن يؤلفوا نوعاً من الحكومة السرية التي تسهر على بقاء التكتل العنصري، وتضمن عزلة شبه كاملة لتلك الطائفة وسط أمم العالم.

وكان أول شكل من أشكال هذا التنظيم العنصري هو «السنهدرين». وهو المجلس الأعلى الذي يحكم الطائفة، ويملك وحده حق الحل والعقد في شؤونها.

والسنهدرين كلمة دخيلة على اللغة العبرية بعد عصر الكتاب المقدس بأجيال. وأصلها يوناني «سوندريون» بمعنى المجلس، أو الجمعية، أو الهيئة الاستشارية، من فعل في اللغة اليونانية هو «سوندريو» معناه اجتمع. واستعمل اليونان لفظة «سوندريون» في لغتهم للمؤتمر السياسي الذي ينعقد على أثر الحروب، ولهيئة أركان الحرب، كما عبَّروا بها عن المحكمة العليا، وكذلك مجلس الشيوخ.

واستعملها المؤرخ اليهودي يوسيفوس في القرن الأول الميلادي، في حديثه عن التنظيمات الجديدة التي أدخلها «جوبينوس» الحاكم الروماني على الشام، سنة ٥٧ قبل الميلاد، عندما قسم فلسطين إلى خمس محافظات، وجعل لكل منها هيئة حاكمة تسمى «السنهدرين»، وكانت أورشليم إحدى هذه المحافظات الخمس!

وأوضح كثير من محقّقي التاريخ اليهودي أن استعمال هذه الكلمة اليونانية بين اليهود أقدم من ذلك، يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وقد

ترجموا بها اللفظة العبرية الفصحى «زقينيم»، أي شيوخ الجماعة. اقتداء بموسى الذي اختار من قومه سبعين رجلاً، هم أعضاء المجلس الذي يحكم بني إسرائيل. ولا ندري كيف كانوا يحكمون على أيام موسى. ولكننا نعلم أنهم في عصور ما بعد السبي البابلي كانوا يقومون بالمشورة والإفتاء وتنظيم الهيكل والقضاء بين الناس. كما كانوا هم الذين يصدرون أحكام الإعدام. وكانت هذه المهمة الأخيرة دقيقة جداً بالنسبة لهم. فكانوا يعنون بالبحث عن الشبهات والظروف المخففة حتى لا تكثر أحكام القتل، احتراساً من قول التلمود: «إن السنهدرين الذي يقتل واحداً كل أسبوع لجدير بأن يسمى مخرباً».

وقد نظم أحبار التلمود السنهدرين فجعلوه على درجتين:

ـ السنهدرين الأعظم، وهو المجلس الأعلى المركزي لجميع اليهود. ويتألف من سبعين رجلاً على رأسهم واحد ينوب عن موسى، هو الملك إن وجد، أو الحاخام الأكبر. وكانوا إذا اجتمعوا جلسوا في نصف دائرة.

ـ السنهدرين الأصغر، وهو مجلس محلي لكل تجمع يهودي. يتألف من ثلاثة وعشرين عضواً. وقد ورد في التلمود أن مدينة أورشليم كانت تمتاز بمجلسين من السنهدرين الأصغر، ينعقد كل منهما عند باب من أبوابها، إلى جانب السنهدرين الأعظم الموجود بها أيضاً. وكان السنهدرين الأصغر محكمة تقف في القضاء عند درجة معينة لا تتعداها، إذ تذهب القضايا الكبرى إلى السنهدرين الأعظم.

ورئيس السنهدرين الأعظم كان يحمل لقب «أمير» ـ بالعبرية «ناسيء» ـ ويتخذ مكانه في وسط الأعضاء، بصفته خليفة موسى. وكان اختياره يتم بالانتخاب بين الأعضاء، ولم يكن يشترط فيه أن يكون أكبرهم سناً، ويكتفى بأن يكون أوسعهم علمًا وأشدهم غيْرة على الدين وأعمقهم وعياً بمصالح اليهود.

وفي التلمود جزء خاص بهذا التنظيم عنوانه «السنهدرين»، نشعر من قراءته بأنه كان كما قلنا حكومة سرية لليهود، واجبة الطاعة، نافذة الأحكام. ومن هذه الأحكام الإعدام، وكان ينفذ بالسيف وبالشنق بالحبال وبالصلب. ولا يستثنى من ذلك كبار المسؤولين: الملوك الفسقة والكهنة المنحرفين والأنبياء الكذبة. ونحن نعلم أن سنهدرين أورشليم هو الذي أصدر حكم الصلب على سيدنا عيسى المسيح عليه السلام. ويستفاد من أقوال التلمود أن أحكام الإعدام في الجنايات العادية كانت تصدر على أبناء العوام والسوقة من السنهدرين الأصغر، وكان ذلك كافياً.

وقد أشرنا إلى نظام جلوسهم عند الاجتماع. وكان لترتيبهم جنباً إلى جنب وصفّاً وراء صف أحكام دقيقة يراعونها، ولهم أوقات محدّدة يجلسون فيها ـ كلهم أو بعضهم ـ للفصل في أمور الناس، ولهم جراية مرتبة تعفيهم من العمل، بحيث ينقطعون لخدمة المجتمع اليهودي.

وتقول المأثورات التلمودية إن السنهدرين الأعظم قد استمر في القيام بمهمته في أورشليم حتى في عهد الحكومة الرومانية بفلسطين. وذكروا أن مكان اجتماعه كان عند باب «جزيت» من أبواب المدينة، وهو سوق الصوف الذي يباع بعد جز الغنم، ويبدو أنه في الجهة الشمالية من الهيكل.

وعندما ساءت العلاقات بين اليهود والرومان، تقرر طرد السنهدرين وإلغاؤه من أورشليم، كما ورد ذلك في التلمود (باب السبت ١٥). وقالت الرواة: إن الأربعين سنة الأخيرة قبل تدمير الهيكل اليهودي سنة ٧٠ ميلادية شهدت جلاء السنهدرين من أورشليم، فكان ينعقد سراً في بعض الأماكن المجهولة من الرومان، كبعض الحوانيت التي يملكها تجار من اليهود، أو بعض الساحات القريبة من الهيكل. وطارده الرومان بلا هوادة، فكان الأعضاء يجتمعون في مخابىء حول أورشليم، ثم هربوا إلى بلدة «يبنة» غربي القدس، ثم إلى قرية بمنطقة الجليل في شمال فلسطين اسمها «أوشا»، ثم

http://al-maktabeh.com

إلى يبنة من جديد، وعادوا إلى أوشا، ومنها إلى بلدة يسميها التلمود «شفرعام»، وهي «شفا عمرو»، ثم إلى «بيت شعاريم» بالقرب من صفورية، ثم إلى «صفورية» بالجليل الأعلى «قضاء الناصرة»، ثم انتهى بهم المطاف إلى «طبرية».

ويزعم مؤرخو اليهود أن السنهدرين استمر في ممارسة سلطاته خارج فلسطين قروناً طويلة، جعلها بعضهم تسعمائة سنة.

وفي بعض النصوص الدينية اليهودية نشعر بأن السنهدرين الأعظم في أورشليم على عهد الرومان لم يكن واحداً بل اثنين، أحدهما سياسي والآخر ديني وقضائي. وربما كانت الحقيقة أنهما وظيفتان لجماعة واحدة.

وعند اختفاء السنهدرين في العصور الوسطى، حل محله «القهل» أو «القهيلة»، التي سنعطي عنها فكرة في هذا البحث أيضاً. أما اسم السنهدريـن فلم يعد إلى الحياة عند اليهود إلاّ في فرنسا في عهد نابليون بونابرت(١٢).

(١٢) كان السبب في تفكير نابليون في المشكلة اليهودية كثرة الشكاوى المرفوعة إليه من الفرنسيين في حق اليهود. ومن ذلك ما تقدم به وفد من المواطنين بالألزاس إلى الامبراطور عند مروره بمدينة أستراسبورج عائداً من حربه في أوسترليتز، يومي ٢٢، ٢٣ يناير سنة ١٨٠٦ م، وكان على رأسهم محافظ الإقليم «كيلرمان» وجميع وجهاء المحافظة. وقد ورد في شكواهم من اليهود: «أنهم يغزون كل ميادين الوساطة التجارية والتجارة، ويخربون بيوت الفلاحين بالربا ونزع الأملاك، ويخشى عما قريب أن يكونوا وحدهم المالكين للألزاس».

وعلى أثر ذلك كتب نابليون إلى وزيره للشؤون الدينية بورتاليس أمراً بالدعوة إلى مؤتمر يهودي للبحث في هذه المشاكل وأمثالها، جاء فيه: «وأشير من جديد إلى أنه لا أحد يشكو من البروتستانت ولا من الكاثوليك كالشكوى من اليهود، مما يبين أن الأذى الذي يرتكبه اليهود لا يأتي منهم كأفراد بل من وضع هذه الأمة نفسه. فهم حشرات وجراد يدمرون فرنسا». ومن أجمل ما ورد على قلم نابليون في هذه الرسالة قوله: «إن في طرد اليهود من فرنسا علامة ضعف، بينما القوة في القدرة على تأديبهم». (نقلا عن: جيجس، اليهود في المجتمع الفرنسي).

(Gyges, Les Juifs dans la Société Française; Paris 1956, p. 28- 29).

ففي ٦ اكتوبر سنة ١٨٠٦ م جمع نابليون الحاخامين اليهود في مؤتمر بباريس، وقدم لهم ورقة أسئلة يريد بها أن يعرف درجة ولاء اليهودي الفرنسي للوطن، وهل يتعارض هذا الولاء مع الشريعة الإسرائيلية.

وكانت الأسئلة هي:

١ ـ هل تعدّد الزوجات مباح في الشريعة اليهودية؟.

٢ ـ هل يملك اليهودي حق الطلاق بدون الرجوع إلى القضاء الفرنسي؟.

٣ ـ هل يجوز زواج اليهودية من مسيحي، وكذلك العكس؟.

٤ ـ هل يعتقد اليهودي الفرنسي أن المسيحي الفرنسي غريب من «الجوييم»؟.

٥ ـ ما هي الروابط التي تربط يهودي فرنسا بالوطن حسب الشريعة الإسرائيلية؟.

٦ ـ هل يلتزم اليهودي الفرنسي بكل واجبات المواطن حتى الخدمة العسكرية؟.

٧ ـ من الذي ينتخب الحاخامين؟.

٨ ـ هل يملك الحاخام سلطة محاكمة اليهودي ومعاقبته خارج قوانين الدولة؟.

٩ ـ هل اختيار الحاخام وسلطاته نابعة من الدين، أم هي مجرد تقاليد؟.

١٠ ـ هل هناك حرف وأعمال يحرمها الدين اليهودي على أتباعه؟.

١١ ـ هل تحرم الشريعة الربا بين اليهود؟.

١٢ ـ هل تبيح هذه الشريعة لليهودي الربا من غير اليهود؟.

وجعل نابليون الاجتماع على شكل «سنهدرين» من مائة وأحد عشر عضواً من الحاخامين ورؤساء العائلات اليهودية الكبيرة. وكان على هذا المجلس أن يختار من بينه لجنة من تسعة أعضاء لتنسيق الإجابة عن هذه الأسئلة. ولما كانت إيطاليا في ذاك الوقت تحت حكم نابليون فقد شملها القرار، كما حضر مائة وأربعة من رجال الدين وأعيان اليهود من بلدان

أخرى بصفة مراقبين ومستمعين. وتولى رئاسة الجلسات الحاخام دافيد زينتسهايم، حاخام استراسبورج الأكبر، يعاونه نائبان هما: يوشع بنزايون سجري حاخام فرساي، وأبراهام دي كولونيا حاخام مانتوا.

وانعقد أول اجتماع لهذا السنهدرين في إحدى قاعات البرلمان الفرنسي بباريس، في ٩ فبراير سنة ١٨٠٧ م. فألقى الرئيس خطبة بالعبرية والفرنسية ضمنها تحية لفرنسا وباريس ونابليون. وأعقبه أحد وجهاء اليهود الفرنسيين وهو النائب البرلماني «فورتادو» فألقى كلمة باسم الحكومة. وكانت الجلسة الثانية لهذا السنهدرين يوم ١٢ فبراير. وفيها قام ثلاثة من الحاضرين، من مجلس القهل الهولندي في أمستردام، وهم: آشر، ليمون، ليتفاك، فاشتركوا في المناقشات، الاثنان الأولان بالفرنسية والأخير بالعبرية. ولكن الحاخام رئيس الجلسة رد عليهم بالعبرية طالباً منهم عدم الاشتراك في المناقشات، تنفيذاً لأمر الأمبراطور الذي جعل هذا المؤتمر خاصاً بيهود فرنسا فقط، كما أبلغهم ذلك المندوب البرلماني.

واستمرت الجلسات أيام ١٦، ١٩، ٢٣، ٢٦ فبراير، ويوم ٢ مارس أيضاً، حتى تمت الإجابة على أسئلة نابليون. وفي الجلسة الثامنة للسنهدرين، يوم ٩ مارس، سمح بالكلام لبعض المراقبين اليهود غير الفرنسيين، ورد عليهم الحاخام الأكبر زينتسهايم بأن مقررات هذا المؤتمر يرجى منها أن تكون لصالح الأمة الإسرائيلية جمعاء.

ورفع السنهدرين مقرراته إلى لجنة برلمانية اجتمعت يوم ٢٥ مارس، ثم عادت إلى الاجتماع يوم ٦ إبريل، فأقرت الإجابات التي صدرت عن هذا السنهدرين الحديث، وأدخلتها ضمن قوانين الأحوال الشخصية للدولة. وتتلخص الإجابات المذكورة فيما يلي:

١ ـ تعدد الزوجات محرم على اليهود بفتوى من الربي «جرشوم».

٢ ـ لا مانع من أن تكون أحكام الطلاق لليهود صادرة من محاكم الدولة.

٣ ـ الزواج اليهودي رباط قانوني بين الزوجين مطابق لقوانين البلاد.

٤ ـ الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم صحيح مدنياً باطل دينياً.

٥ ـ مفروض على اليهودي اعتبار مواطنه غير اليهودي أخاً له كابن دينه.
٦ ـ يعتبر اليهود أوطانهم التي ولدوا فيها أو هاجروا إليها كأرض آبائهم تماماً.
٧ ـ لا تحرم الشريعة اليهودية أي نوع من الحرف أو الفنون أو الأعمال.
٨ ـ توصي الديانة اليهودية بممارسة الزراعة والصناعة والحرف كما صنع الآباء في فلسطين.
٩ ـ الربا محرم على اليهود فيما بينهم، وكذلك مع أبناء الأمم الأخرى المسيحيين.

ونلاحظ من خلال هذه الإجابات، ومن تحريم المناقشة على اليهود غير الفرنسيين، أن هذا السنهدرين كان دبلوماسياً أكثر منه شرعياً، وبصراحة كان ينافق الامبراطور، بهدف اكتساب حقوق مدنية في الدستور الفرنسي، ولو كان ثمن ذلك إجابات تتضمن كثيراً من الغش والانحراف عن منطوق الشريعة ومفهومها في العقل اليهودي. ومنذ نحو سبعين عاماً وصفت دائرة المعارف اليهودية الأمريكية هذه القرارات بأنها تفوح منها روائح التطوير، والبرامج الإصلاحية «الريفورم» التي كانت أعراضها قد بدأت في الظهور في ذلك الوقت نفسه في ألمانيا وهولندا. وأضافت هذه الموسوعة العبرية أن المجتمعين في هذا السنهدرين كانوا ـ كما قلنا ـ يريدون الحصول لليهود على المساواة في الحقوق بأي ثمن، ولكن أملهم قد خاب عندما صدرت قوانين نابليون في ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ م، وفيها تحديد لحقوق اليهود.

وبمقارنة سنهدرين نابليون بما ورد في التلمود نجد أنه لم يحتفظ من سلفه القديم إلّا بالاسم فقط، أما المسمّى فقد تغير تماماً، إذ أصبحت سلطاته استشارية بحتة ليست لها قوة النفاذ، وهي في نفس الوقت محلية لا تخرج عن حدود فرنسا، وحتى في فرنسا نفسها لا تعترف بها الحكومة إلّا إذا اعترف السنهدرين بسيادة هذه الحكومة غير اليهودية عليه، وأولوية

قوانينها على شرائعه. ومن هنا يتبين أن صفة الدبلوماسية والنفاق التي وردت في حكمنا عليه لم تأت عفواً. وليس الانحناء للعاصفة، ومداهنة ذوي القوة والبأس بالشيء الجديد في الشخصية الإسرائيلية.

وإذا كنا قد رأينا السنهدرين يمارس سلطاته على اليهود علناً عندما كان لهم في فلسطين على أيام اليونان والرومان حكم ذاتي هناك، ورأينا نزول السنهدرين إلى سراديب النشاط السري بعد الصدام بين اليهود والرومان، فإن الشتات الإسرائيلي في أرجاء الأرض قد جعل بقاء «سنهدرين» أعلى يبسط سلطانه على جميع يهود العالم أمراً مستحيلاً. والذين قالوا من اليهود إن هذا المجمع المركزي لمدينة أورشليم قد ظل على قيد الحياة، يعمل في الخفاء، في قرون الشتات، إنما تعلقوا بتقليد ذي قدسية عندهم أرادوا أن يصونوه بأي ثمن. فالسنهدرين ـ أي المجلس الحاكم ـ بدا من خلال التلمود وكأنه رمز للتماسك القوي، العنصري والديني، لليهود، وكان من الصعب على عقول يهودية كثيرة أن تتأقلم في حياة ليس فيها سنهدرين.

أما التنظيم الاجتماعي الذي حل عملياً محل السنهدرين بين يهود الشتات فهو «القهل»، الذي أشرنا إليه، أو «القهيلة».

وقبل أن تصبح هذه الكلمة ذات مدلول اجتماعي خاص في حياة اليهود المشتتين في الأرض، كانت تستعمل في البداية بمعنى «الاجتماع» أو «الجماعة». وهي ترتبط في اشتقاقها اللغوي القديم بلفظة «قول» بمعنى النطق، وهي في العبرية تدل على الصوت والصياح والنداء. فالقهل هو مجموع الناس الذين تبلغهم الدعوة فيأتون للاجتماع، وفي التوراة «بيوم ها قهل» أي «في يوم الاجتماع»، (التثنية ١٨ : ١٦). ومن ثم أصبح القهل هو الهيئة التي تدعي عند المهمات، كقول النبي يوئيل «قدشو قهل» أي «قدسوا الجماعة» في خطبة له قد تزيدنا تفهماً لهذا المعنى إذ يقول: «اضربوا بالبوق في صهيون، كرسوا صوما، نادوا باعتكاف، اجمعوا

http://al-maktabeh.com

الشعب، قدسوا الجماعة، احشدوا الشيوخ، اجمعوا الأطفال وراضعي الثدي، ليخرج العريس من مخدعه، والعروس من خدرها. ليبك الكهنة خدام الرب، بين الرواق والمذبح، ويقولوا: ارحم شعبك يا رب، ولا تسلِّم ميراثك للعار حتى تجعلهم الأمم عبرة»، (يوئيل ٢: ١٥ ـ ١٧). فنحن نرى أن القهل هنا هو جمهور المجتمع اليهودي كله عندما يدعون من أجل مهمة تجتاحهم جميعاً، من الكهنة إلى العامة والرجال والنساء والأطفال، يأتون على صوت الأبواق وصيحات النداء. وتأتي لفظة «قهيلة» بنفس المعنى تقريباً، وقد ورد في التوراة «قهيلة يعقوب» بمعنى «جماعة يعقوب»، (التثنية ٣٣: ٤).

وقارىء **التلمود والمدراش** ـ وهي من الأدب اليهودي بعد الشتات الروماني ـ يجد أن القهل أو القهيلة تمثل جمهور اليهود المتجمعين في منطقة واحدة. وكان لهم مجلس إدارة يسمى بالعبرية «عدة» أي مؤتمر الجماعة، ويوصف أحياناً بأنه المجلس الملِّي المقدَّس، بالعبرية «عدة قدوشه». وظهرت بجانب هذا لفظة «صبور». وكان معناها مختلفاً عن القهل، فهي جماعة المشتركين في طقوس دينية جماعية على التخصيص. ونقرأ في نصوص الشريعة الإسرائيلية مثلاً أنه لا يمكن اعتبار صلاة الجماعة في المعبد جائزة إلاّ بحضور عشرة على الأقل، وأغلب فقهاء اليهود ينصُّون على أن يكونوا عشرة رجال، ولا تدخل النساء في هذا العدد. ويطلقون على الحاضرين لصلاة الجماعة لفظة «صبور». وهي لفظة لم ترد في الكتاب المقدس، بل هي من المستحدثات الكهنوتية بعد عصور الأنبياء.

كانت الجالية اليهودية بعد الشتات تتكتل وتعيش في عزلة عن البشر الذين يحيطون بها. وكانت دائمًا تكون لها تنظيمًا اجتماعياً لا تعلم عنه الدولة شيئاً، تسمِّيه بتحريف آرامي تلمودي «قهلا قديشا» أي «الجالية المقدسة». وهدفها من ذلك كما أسلفنا هو أن تحمي نفسها من الاندماج والذوبان في «الجوييم».

وكان لكل جالية مجلس إدارة يتكون من سبعة من وجهاء اليهود في البلد، يتصدرهم «العائل»، بالعبرية «برناس»، أو المدبر، بالعبرية «جزبار»، الذي تطور مع الزمن فأصبح «المدير المالي» أو «أمين الصندوق». وكان زعيم الطائفة يسمّى أحياناً «رئيس الهيئة» بالعبرية «روش عده»، ويسمونه أيضاً «عضو المدينة»، بالعبرية حبيرها عير، لأن القهل كانوا يسمون أنفسهم أيضاً «أبناء المدينة»، بالعبرية «بني ها عير».

ومع ذلك فهناك بعض أسماء مختلفة بحسب البلدان.

ففي مصر وبعض بلدان شمال أفريقية والمغرب والأندلس كان رئيس الطائفة يحمل لقب «نجيد» أي «عظيم».

وكان شيخ يهود العراق على وجه التخصيص يحمل لقب «رأس الجالوت» أو «رأس المثيبة»، وبالعبرية «ريش جالوثا»، منذ إجلاء اليهود إلى العراق في السبي البابلي، أو بتعبير أدق إحياء لذكرى هذا الجلاء القديم، وإشارة إلى قدم يهود العراق في الاستيطان في وادي الرافدين.

والظاهر أن مجلس القهل كان في الأصل يتكون من سبعة أعضاء كما يبدو من بعض نصوص الشريعة الشفوية اليهودية ـ المشنا ـ أن هذا المجلس البلدي قد عرف قبيل الشتات عندما تزعزع شأن اليهود في فلسطين في الأجيال المحيطة بميلاد المسيح، تحت ضغط الرومان والسوريين والأردنيين والعرب. فكان اليهود يختارون لهم مجلساً بلدياً مكوناً من سبعة من وجهائهم، (المشنا/ مجلة ٨٤: ١).

وتحول القهل في الشتات إلى مجتمع مغلق كما قلنا، يمثل مجلسه الخاص حكومة سرية واجبة الطاعة، تفرض الضرائب على اليهود من غير علم الدولة، وتتصرف في ميزانيتها، مقررة إعانات معينة للفقراء وللمنشآت والأعمال الخيرية الجماعية. وواضح أن هذا هو أصل السلطة التي منحتها الصهيونية في العصر الحديث لشعبها وفروعها، لفرض مثل تلك الأتاوات

على يهود العالم حتى تستعملها في تحقيق استعمارها لفلسطين. كما كان لمجلس القهل حق توقيع العقوبات، واستدعاء الأفراد للمهمات العلنية والسرية.

وكانت الضرائب التي يفرضونها منوعة، بعضها على الأفراد وبعضها على الممتلكات والأرباح. ويعفى من كل هذه الضرائب أعضاء المجلس، لأنهم يقومون بخدمة دينية في الجهات من أجل اليهود لا تقل عن خدمة الكهنة للهيكل، والكهنة لا يدفعون شيئا ولهم جراية من الأمة. وفي كل قهل سجل بأسماء الأفراد ومحل إقامتهم وما يجب على كل منهم من الضرائب. كما كانت هناك دفاتر لإثبات جميع الإنجازات والمصروفات التي يقررها مجلس القهل. وكل هذا مودع عند أمين محفوظات القهل. وكانت الضريبة، بالعبرية «مس» تثبت في السجل بدقة. وهذا السجل يسمى «بنقاس».

والذي يدلنا على أن مجلس القهل كان البديل للسنهدرين، ما يتمتع به من حق إصدار التشريعات والفتاوى، بشرط ألا تكون مخالفة أو مبطلة أو مناقضة أو ناسخة لحكم أفتى به الأقدمون.

وتتأكد الصفة المحلية لمجلس القهل في أنه كان لا يستطيع أن يتدخل في شؤون مجلس آخر إلّا بعد اتفاق مشترك. وتأتي في هذا الصدد مفاصيل طويلة تتصل بمقدار مسؤولية كل قهل من التجمعات اليهودية المتقاربة، عندما تتعرض لمشاكل وأخطار من قبل غير اليهود. وكلها تهدف إلى الدفاع عن مجموع الطائفة، وتقليل الضحايا ـ إن كانت هناك ضرورة للتضحية ـ إلى أدنى ما يمكن. وعند مجلس كل قهل لائحة داخلية خاصة تندرج السلطات الدينية والسياسية والاجتماعية على اختلافها، وبيان حقوق كل من قادة القهل بحسب درجته في الزعامة.

وفي كثير من البلدان كانت الحكومات تلجأ إلى مجلس القهل

وتستعين به في جباية الضرائب الرسمية، وكان ذلك يمثل اعترافاً بوجود الطائفة ومجلسها.

وانتهز الكثير من مجالس القهل هذه الفرصة فوسعوا من نشاطهم، وجعلوا لهم سياسة علنية تعرفها الحكومات، وأخرى سرية مقصورة على اليهود، تهدف إلى تقوية العنصرية، وتشديد العزلة الدينية والحضارية، وهذا التخطيط السري كان يسمى «دعم الجالية»، بالعبرية «حزقة هايشوب»، وقد ذاع بين اليهود حتى أصبح يسمى باختصار «حزقة» أي «الدعم».

وفي أخريات العصور الوسطى وصل أمر القهل إلى صورة خطيرة من صور التضامن السري، انتهت باتحاد كثير من مراكز الاستيطان اليهودي ممثلة في مجلس قمة للشؤون اليهودية كان يسمى «مؤتمر الأقاليم الأربعة»، بالعبرية «وعد أربع أرصوت». وفي بعض الأحيان كان القهل يستطيع توقيع العقوبات الجنائية على المخالفين للشريعة. وفي أيام الحكم العربي في الأندلس حصل القهل على حق معاقبة اليهود على الجرائم الدينية، حتى تنفيذ عقوبة الإعدام في من تقضي عليه شريعتهم بذلك.

وفي كثير من بلدان أوروبا الشرقية، وخصوصاً بولونيا ولتوانيا، كان القهل يستطيع القبض على المارقين عن الدين، والمتهمين بفضح أسرار الطائفة عند الأمم الأخرى «الجوييم» وكان المتهم يحبس في سجن خاص ملحق بالمعبد اليهودي، ويبقى محبوساً يوماً أو يومين، يمرّ به جميع المصلّين والزائرين فيشتمونه ويبصقون في وجهه.

وقد أثار تعسّف القهل، وتدخله العنيف في حرية الفكر وحرية العقيدة سخط كثير من اليهود، لا سيما بعد انتشار الحريات في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وتبعاً لذلك كثرت حوادث التنكيل والتعذيب والإهانة التي يمارسها القهل على اليهود. وكانت التهم الموجهة إلى المتمردين تتلخص في الكفر والزندقة والانحلال الديني والخلقي، أو «الأبيقورية» كما كانوا يسمونها اقتداء بالتلمود. كذلك كثر مع سهولة

الاندماج في الأمم الأخرى في عصر الحرية اتهام القهل لبعض رعاياه بالخيانة وإفشاء الأسرار بقصد تعريض الطائفة للخطر. وهناك حالات كثيرة عُوقِب فيها اليهود لتلاعبهم باقتصاد القهل بإخفاء موارد ثروتهم، أو كتمان الأرقام الصحيحة لأرباحهم تهرّباً من الضرائب والأتاوات المفروضة.

وكان اختيار العائل، أو المدير الاقتصادي للقهل، يتم بالانتخاب لمدى الحياة، أو لعدد معين من السنين، وفي بعض مراكز الاستيطان كانوا ينتخبون عائلاً لكل شهر من شهور السنة، وكان مجلس القهل يتولى تعيين القضاة، ورؤساء المحاكم المليّة، ورجال الدين، ومعلمي المدارس، وكلّ من يحمل مسؤولية في الخدمة العامة.

وكانت خزانة القهل في كثيرٍ من الأحيان تُستثمر ما عندها من أموال الطائفة. وكانت أكثر طرق الاستثمار شيوعاً هي الإقراض بالربا وبضمانة ممتلكات مرهونة.

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفننوا في فرض الضرائب على نحوٍ يفوق ثقل الضرائب الرسمية نفسها، فكانوا يحصّلون ضرائب على الملح والتبغ والأسماك المملّحة والزفت، وأخرى على المتاجر والفنادق ومحالّ الجزارة والعقارات المؤجرة وبعض الحِرف الأخرى. هذا بالإضافة إلى ضريبة الإعالة، لتمويل القوّة العسكرية الحكومية الموجودة في منطقة اليهود، ولدفع مرتبات الموظفين الرسميين المسيحيين في المنطقة.

ولم تشعر أوروبا بخطر القهل، وبأنه حكومة يهودية حقيقية في داخل الدولة إلا في غضون القرن التاسع عشر. فأصدرت روسيا وبولونيا قانوناً بإلغاء القهل سنة ١٨٤٤ م. وكانت النتيجة المباشرة لهذا القانون أن بدأ اليهود يتحركون نحو الصهيونية. ومع ذلك ظلّت هذه الحكومة اليهودية السرية تمارس سلطتها في شرق أوروبا سرّاً حتى سنة ١٨٩٣ م، أي إلى

http://al-maktabeh.com

ما قبل المؤتمر الصهيوني العالمي الأول بأربع سنوات فقط.

ولم تكن نقمة الحكومات المختلفة على القهل بلا مبرر، أو بدون معلومات كافية. بل كانت صدىً لتمرّد كثير من المتحررين اليهود على هذا النظام المستبد. ففي سنة ١٨٦٩ م نشر اليهودي يعقوب برافمان كتاباً يفضح فيه الحكومة اليهودية السرية في القهل. وأثار الكتاب ضجة كبيرة في وقته، وراح القهل يصدر المنشورات لتكذيب برافمان.

وفي سنة ١٨٠٦ م حدث في فرنسا التي كان يحكمها نابليون بونابرت حَدَث هام سبق السنهدرين الجديد الذي تحدّثنا عنه، وذلك هو تجميع المستوطنات اليهودية الفرنسية «القهلوت» كلها في مجالس مليّة رسمية تحت إشراف الدولة، تتجمع بدورها في المجلس الملّي العام ليهود فرنسا «الكونسستوار».

ومنذ ذلك الوقت حذت بلاد أوروبا الغربية وأمريكا حذو فرنسا، فقام في بريطانيا اتحاد المعابد اليهودية، برئاسة الحاخام الدكتور ناتان أدلر سنة ١٨٧٠ م.

ونسأل الآن هل انزاح ظل القهل، سرّاً وجهراً، عن العالم؟

الجواب: لا. فالمؤتمرات الصهيونية بفروعها وشعبها وهيئاتها العلنية وعصاباتها السرية التي تمارس الإرهاب على اليهود المتحررين الإنسانيين، والتي تخطط لبث التفرّق والشقاق بين الأخوة والأقرباء في المجتمعات الدولية، وفي المجتمعات العربية والإسلامية، وفي البلاد حديثة الاستقلال، والبلاد النامية، كلّ هذا ليس إلا توسيعاً لظل القهل الأسود الذي يريد أن يتّسع وينتشر بمقدار ما اتّسعت الصهيونية وانتشرت في غفلة من شعوب العالم، أو بالتواطؤ مع بعض الانتهازيين من تلك الشعوب.

* * *

الشّخصيّة الإسرائيليّة
وعقدة الشعور بالاضطهاد

معلومٌ أن الحقد هو الابن الشرعي للشعور بالاضطهاد، والحقد اليهودي لا يشذّ عن هذه القاعدة. وليس وجود عقدة الاضطهاد في الشخصية الإسرائيلية شعوراً من تخييل الوهم أو نسج الخيال. فمما لا شك فيه أن اليهود ذاقوا مرارة الاضطهاد كثيراً، وفي عصور متعددة من تاريخهم. ولكن الذي يحوم حوله الشك هو كون هذا الاضطهاد مجاناً وبلا حريرة من قبل اليهود. إذ لا تكاد توجد ظاهرة في مجتمعٍ من المجتمعات بدون علّة أو سبب، وأحداث التاريخ لا تخبط خبط عشواء إلا نادراً جداً. وإذا كانت جماعة صغيرة من الناس تجعل التمييز العنصري أساساً لفكرها منذ البداية، ثم لا تفكر على مرّ العصور إلا في تقوية هذا التمييز العنصري، فهي جماعة مقضي عليها بالكراهية. فإذا كانت إلى جانب ذلك قليلة العدد، ضعيفة، هشّة، تحولت الكراهية بسرعة إلى اضطهاد، ويظل الاستعلاء العنصري يجذب الكراهية، والكراهية تولّد الحقد، والحقد يغري بالاضطهاد. وإذا باليهود يدورون، والعالم على أثرهم، في حلقة جهنمية مفرغة.

وهناك ذكريات في التاريخ اليهودي يحولها اليهود إلى غذاء لنيران الحقد والاضطهاد في تلك الدائرة الجهنمية.

ومن أهم تلك الذكريات ما يسمى عندهم «الشتات» أو «دياسبورا»، وهي كلمة يونانية أخذها العبريون إلى لغتهم، وأدخلوها في

اللغات الأوروبية أيضاً، ومعناها الأصلي التفرّق في الأرض، والذهاب فيها أشتاتاً.

والشتات ظاهرة كثيرة الوقوع في تاريخ اليهود، حتى قبل ظهور هذه الكلمة. والحقيقة أن اليهود قد تصوروا وضعاً طبيعياً لكيانهم كان في جوهره منافياً للطبيعة، وبنوا على هذا التصوّر كل شعورهم بالاضطهاد، فكم من قوم يتّبعون ديناً واحداً وليسوا من أصل واحد، ولا يطالبون بوطن واحد. فالإسلام والمسيحية والبوذية مثلاً تضم مؤمنين بتلك الشرائع من جميع الأعراق والأوطان. لكن حدث أن استطاع اليهود في فترة قصيرة من تاريخهم أن يتجمعوا في أرض لم تكن لهم، هي فلسطين، التي تقول عنها التوراة نصاً: «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه، في أرض كنعان»، (التكوين ٣٧: ١). ثم يتحول تجمعهم هذا إلى مملكة قصيرة الأجل تعاقب على عرشها شاؤل وداود وسليمان في مستهل الألف الأول قبل الميلاد. ثم راحت هذه المملكة تضمحل، إذ انقسمت إلى مملكتين صغيرتين ضعيفتين بعد موت سليمان مباشرة، ولم يكن من المتصور سياسياً أو اجتماعياً أن يبقى هذا الكيان الغريب في فلسطين، وأن يقاوم الفراعنة والأشوريين والكلدانيين. كانت إحدى هاتين المملكتين ـ وتدعى إسرائيل ـ تشغل منطقة كبيرة في شمال فلسطين، وتتخذ لها هناك عاصمة هي السامرة، التي تغير اسمها بعد ذلك إلى الاسم الحالي «سبسطية» في قضاء نابلس. أما الأخرى فكانت مملكة يهوذا، في جنوب البلاد، بعاصمتها «أورشليم».

وزالت المملكة الأولى سنة ٧٢٠ ق.م عندما انقضّت عليها الجيوش الأشورية. ويقول رواة اليهود أن عشرة أسباط من الاثني عشر سبطاً الذين يكوّنون بني إسرائيل، كانوا رعية هذه المملكة، وقد فرض عليهم الشتات على أثر الهزيمة. قالوا: وقد ضاع هؤلاء الإسرائيليون في بلاد الله، بحيث إن وُجِدَ رجل يؤمن بشريعة موسى، أو يسلك مسلكاً

قريباً منها، فإنه يعتبر من بقايا هذه الأسباط العشرة البائدة.

أما المملكة الثانية فزالت سنة ٥٨٦ ق.م على يد بختنصر الكلداني. وكان رعايا هذه المملكة من السبطين الباقيين: يهوذا وبنيامين. وقد ضُرب عليهم نوعٌ آخر من الشتات، إذ نقل الكلدانيون كل من له قيمة في جماعتهم إلى العراق ـ أرض بابل ـ حيث فرضت عليهم إقامة إجبارية، تقول الروايات أنها حول موضع كان في العراق اسمه «تل أبيب» على نهر الخابور، (حزقيال ٣: ١٥). وقد حرصت الصهيونية الحديثة على الإبقاء على نار الحقد اليهودي منذ هذا الحادث الذي يسمى في تاريخهم «السبي البابلي»، فسمّت معقل الصهيونية الأكبر في فلسطين «تل أبيب» أيضاً.

وبعد سبعين سنة تقريباً ظهر في إيران قورش الأول، يريد هو أيضاً أن يؤسّس امبراطورية على أنقاض الامبراطورية الكلدانية المتداعية. فساعده أولئك اليهود الحاقدون، واعتبروه مخلّصاً ربّانياً لهم، ووصفوه بأنه المسيح المنتظر، «هكذا يقول الرب لمسيحه، لقورش، الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً، وأحلّ أحزمة ملوك، لأفتح أمامه المصراعين، فلا تغلق الأبواب. إنني أمشي أمامك، وأمهد الهضاب، وأحطّم مصراعيّ النحاس، وأكسّر مزاليج الحديد، وأعطيك مكنونات الكنوز وذخائر المخابىء، حتى تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك، إله إسرائيل، لأجل يعقوب عبدي، وإسرائيل الذي اصطفيته، دعوتك باسمك، لقبتك وأنت لا تعرفني»، (أشعيا ٤٥: ١ ـ ٤). أما هذا المسيح المنتظر فقد أعطى لليهود وعداً بالعودة إلى فلسطين، يشبه وعد بلفور في العصر الحديث. وهكذا أصبح للقوم كيان في فلسطين في ظل هذا الاستعمار القديم.

وتعاقب على المنطقة بعد ذلك اليونان بقيادة الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م. ثم تنازعها من بعده خلفاؤه: السلوقيون في الشام، والبطالسة في مصر، وكانت فلسطين في أغلب الأحيان من نصيب البطالسة، يخضع

لهم اليهود، ويستنجدون بهم أحياناً ضد العرب الذين ظهرت فيهم عروش تطالب بفلسطين، واشتهر من ملوكهم في النصوص اليونانية واللاتينية أذينة وحارثة وغيرهما(١٣). وورث الرومان البطالسة فاحتلوا مصر وفلسطين معاً، وكان احتلال فلسطين سنة ٦٣ ق.م.

وظل المجتمع اليهودي يغلي سياسياً ودينياً، وكثرت فيه الفرق والأحزاب والحركات، وكان بعضها متطرفاً شديد التطرّف، يقول بالاغتيال والتكفير لأوهى الأسباب، والطرد والحبس والصلب، وهي الفترة التي تعرض فيها لذلك سيدنا عيسى المسيح عليه السلام.

وفي سنة ٧٠ ميلادية ضاق الرومان ذرعاً بشغب اليهود، وتآمرهم، وتمردهم. فوجه إليهم الإمبراطور فسبازيان من الإسكندرية جيشاً كبيراً يقوده ابنه تيتوس. وبعد قتال مرير استطاع الرومان تدمير هذا الوجود اليهودي الضئيل المشاكس.

ومن هنا فقط تبدأ الدياسبورا، الشتات، بالمعنى الاصطلاحي. فلأول مرة في التاريخ الأكيد المُدعم بالوثائق، يتفرق اليهود لا في عالم الساميين في الشرق الأوسط فحسب، بل في الجانب الأوروبي من البحر الأبيض المتوسط، وحيث أمكنهم المقام في هذا العالم الغربي. أما فلسطين فكان قد ظهر فيها من قبل دين سماوي جديد يمثّل هو أيضاً عقبة شبه

---

(١٣) هناك ملكان من ملوك العرب اسم كلٍّ منهما حارثة، أولهما كان معاصراً لأواخر حكم البطالسة (القرنين الثاني والأول قبل الميلاد) والثاني كان معاصراً للإمبراطور الروماني يوليوس قيصر، وكان على خلاف مع اليهود والرومان. وقد ذكرهما المؤرّخ اليهودي القديم يوسيفوس في كتابه «حرب اليهود».

Josephus: The Jewish War; Penguin Books, 1959; pp. 35, 38, 42; 99, 120.

أما أذينة فكان في القرن الثالث الميلادي ملكاً لتدمر، وهو الذي حارب الإمبراطور الفارسي سابور الأول ومنعه من التقدّم نحو فلسطين، وضمّها هو لمملكته. وبعد موته خلفته على العرش زوجته الزبّاء.

Max L. Margolis et Alexandre Marx: Histoire du Peuple Juif; Paris, 1930; pp. 210, 226.

http://al-maktabeh.com

أبدية أمام مطامع اليهود في إعادة الكرّة، وهو الدين المسيحي.

ومع ذلك فقد راحوا يتسللون إلى الأرض المقدسة من جديد، ولم يكد يمضي نصف قرن من الزمان حتى كانت جموعهم في فلسطين كافية لإزعاج الرومان مرة أخرى. وقام فيهم زعيم سياسي وعسكري متطرف، هو «بركوكبا»، فقاد سنة ١٣٢ ميلادية ثورة ضارية ضد الرومان، انتهت بالفشل الذريع أمام عملية قمع قادها الإمبراطور الروماني هدريان، وانتصر فيها على اليهود سنة ١٣٥ ميلادية. وأمر هدريان بعدم السماح لأي يهودي بالإقامة في فلسطين، كما أزال كل ما يُشعِر بوجود لأولئك الناس، لدرجة أنه محا اسم أورشليم، ودعاها «إيليا كابيتولينا»، وهو اسم صاغه خصيصاً من اسمه الأول وهو «إيليوس» واسم «الكابيتول» وهو المعبد الوثني الروماني المقدس في مدينة روما.

وبعد موت هدريان راح اليهود يفِدون سراً على فلسطين من جديد، حتى إذا كان القرن الرابع الميلادي وجدنا لهم مدارس تلمودية هناك. ولكن الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول اعتنق المسيحية، وأصدر سنة ٣١٣ ميلادية «مرسوم ميلانو» الشهير، الذي يعطي للمسيحيين حرية ممارسة دينهم في الدولة، ويمنع من التعرّض لهم. ثم صدرت إرادة إمبراطورية بجعل الدين المسيحي ديناً رسمياً للدولة. وانعقد في سنة ٣٢٥ ميلادية مجمع نيقية الأول. وهو أعظم مجمع مقدس مسكوني للمسيحيين في التاريخ كله. وفيه قام عدد من القديسين، وآباء الكنيسة الأقدمين أمام قسطنطين الذي كان يرأس المجمع، فشرحوا كيف أجرم اليهود بالتآمر على حياة المسيح، وطلبوا من الإمبراطور إغلاق مدارسهم التلمودية في فلسطين.

ويشعر الباحث في تاريخ الفترة الواقعة بين ثورة بركوكبا ومؤتمر نيقية ـ وهي حوالي قرنين من الزمان ـ بأنها كانت فترة نشاط سرّي لليهود في فلسطين على الرغم من التضييق الروماني. فكانوا يعودون متسللين، ومن

بينهم زعماء لهم خطرهم، حتى تكونت منهم جالية قوية، كانت حوالي سنة ١٥٠ ميلادية تقيم في منطقة الجليل، في مدينة طبرية وما حولها، وكان لها «سنهدرين» يمارس سلطاته سرّاً أو علناً بحسب الظروف. وأغرب من ذلك أنه حوالي سنة ٢٠٠ ميلادية استطاع الربي العلاّمة يهودا الأكبر الناسىء جمع الشريعة الشفوية (المشنا) وتدوينها في صورتها النهائية، وهي المتن الأساسي الذي يشرحه التلمود(١٤).

وهكذا كانت الفترة من ٧٠ إلى ٣٣٠ ميلادية مرحلة انتقال لليهود من فلسطين إلى الشتات بصور مختلفة، انتهت بتضافر القوة الرومانية مع العقيدة المسيحية في الضغط على اليهود.

وأخيراً أخذ هؤلاء اليهود يتفرقون، ويُمعِنون في البعد عن مراكز الاضطهاد، إلى أبعد ما استطاعوا الوصول إليه من بلاد العالم، حيث عاشوا في هذا الشتات، تتضخم في نفوسهم عقدة الشعور بالاضطهاد، ويتضخم معها الحقد على أمم العالم، فلا يبقى لهم حل بعد ذلك إلا العزلة، التي ألقت بهم في النهاية في «الجيتو».

وإذا كان السنهدرين والقهيلة من صور العزلة اليهودية الاجتماعية التي أراد بها اليهود أن يحافظوا لأنفسهم على كيان يستعصي على الذوبان في الأمم الأخرى، فإن «الجيتو» ـ أو الحي الخاص بسكنى اليهود في أوروبا ـ كان صورة أخرى من اندحار اليهودية وراء أسوار معمارية حقيقية

(١٤) كان اليهود، وما يزالون، يحرصون على العزلة عن أمم العالم، ولا يريدون أن تعرف هذه الأمم عنهم شيئاً إلا ما يسمحون هم بالاطّلاع عليه. وكان العهد القديم العبري (أي أسفار التوراة الخمسة، وكتب الأنبياء، وأسفار المأثورات الحكمية) تعتبر عندهم من الأسرار التي يجب ألاّ تتسرب إلى الجوييم. فلما قام أتباع السيد المسيح بإبلاغها إلى غير بني إسرائيل، بلغاتهم، فكر اليهود فوراً في إنشاء مستودع فكري وديني آخر خاص بهم. ومن هنا نبتت فكرة الشريعة الشفوية (المشنا) وتفاسيرها الخاصة (التلمود)، واعطيت عندهم نفس الدرجة من القدسية التي لتوراة موسى، بل أكثر، حتى تستمر في داخلها عزلتهم عن العالم، ورفضهم الانفتاح على شعوبه.

فرضها القوم على أنفسهم، وأقرّتهم على ذلك الأمم التي يعيشون بينها. كان الجيتو تتويجاً لمسلك العزلة والعداوة بين إسرائيل والأمم الأخرى، وكان بوتقة جديدة أعيد فيها سبك الشخصية الإسرائيلية.

كانت الطريقة التي يعيش بها اليهود بين تلك الأمم كافية لإيجاد الكراهية المتبادلة بينهم وبين هذه الأمم. فقد أرادت جموعهم في الشتات أن تظل ـ كما أشرنا ـ وحدات متحوصلة في جسم المجتمع الذي تعيش فيه، يرفضها وترفضه، حتى أصبح اليهودي في النهاية ـ ظالماً أو مظلوماً ـ شخصية مشبوهة كريهة في كل هذه المجتمعات. ورأيناه في أوقات كثيرة محروماً من حق امتلاك الأرض وزراعتها، واستخدام العمال غير اليهود، وأخيراً من السكنى في داخل الجماهير، وممارسة الصناعة والتجارة بأمن وحرية. فلم يبق له والحالة هذه من مصدر للرزق إلا ما تشمئز منه الفضائل الدينية من أعمال، كالربا، والصيرفة، وبعض الحِرَف الشاقّة أو القذرة كدبغ الجلود، واستخراج الملح، وتقديد الأسماك، وسبك المعادن، والصباغة، إلى جانب ألوان من الاحتيال وراء ستار السمسرة أو ألعاب القمار والمراهنات. وقد ضاق كثير من المُصلحين اليهود بمثل هذا النمط من المعيشة، ووصفوا الذين يأخذون به بأنهم من «رجال الهواء»، أي الذين يعيشون بلا ركيزة ولا أساس، ويمكن للمجتمع أن يستغني عنهم(١٥).

وفي أوروبا المسيحية زاد بعض اليهود بسبب ما كان بينهم وبين المسلمين في الشرق والأندلس والمغرب من تفاهم وتعاون، في ظل حرية أعطاها لهم العرب على نحو لم يروه في التاريخ، ربما في عهد سليمان نفسه. ثم جاءت الحروب الصليبية فألهبت نار هذا السخط، بحيث كثرت حوادث اعتداء الصليبيين على التجمعات اليهودية الواقعة على طريقها.

(١٥) بالألمانية ـ واليهود الأشكناز المتكلمون بهذه اللغة أو بالرطانة الألمانية الخاصة بالجيتو هم مصدر التسمية: Die Luftmenschen.

ففي سنة ١١٧٩ م مثلاً، كان جماعة من اليهود مسافرين من مدينة كولونيا الألمانية، على طريق يحاذي نهر الراين، وعلى هذا الطريق وجدت جثة قتيلة مسيحية، اتهموا هم بقتلها وخيرتهم حكومة الولاية بين اعتناق المسيحية أو القتل، ورفض اليهود الارتداد عن دينهم، وألقوا جميعاً في النهر. واشتدت العداوة بين اليهود والمسيحيين الألمان، وكان من مظاهرها الإفراط في فرض الغرامات والأتاوات على بعض الجاليات الإسرائيلية هناك. وشجع هذا المحاربين الصليبيين على التنكيل باليهود، وتكرر الاعتداء عليهم إبان الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة، مما سجله كاتب يهودي معاصر لتلك الفترة، هو أفرايم بن يعقوب (١٦) من مدينة بون الألمانية (توفي حوالي سنة ١٢٠٠ م).

ولم يكن اليهود يرحمون المسيحي إذا تعامل معهم أيضاً، وكان سلاحهم هو إقراضه المال بالربا الفاحش، حتى أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ م - ١٢١٦ م) أصدر أمراً بأن يكون القرض الذي يأخذه المقاتل الصليبي من اليهود بدون فوائد، واليهودي المخالف يعاقب بالحرمان المطلق من التعامل مع المسيحيين، واتخذ هذا الأمر البابوي صفة القانون في مجمع لاتران المقدس الرابع سنة ١٢١٥ م.

وتفنّن اليهود مع ذلك في التلاعب بأرزاق المسيحيين وأموالهم، وكان لا بدّ من التفكير في طريقة يعرف بها اليهودي من غيره في المدن والأسواق، وظهرت في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر أوامر رسمية تفرض علامات مميزة على ملابس اليهود، وكان أشهر هذه العلامات «العجلة»، وهي حلقة يُثبّتها اليهودي على صدره. وقد سهّلت هذه العلامة تعرّض اليهود للإهانة والعنف في الطريق، حتى استنجدوا بالبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ م - ١٢٤١ م) الذي أمر بالتسامح معهم،

(١٦) المرجع: Max L. Margolis et Alexandre Marx; Histoire du Peuple Juif; Paris; 1930; p. 345

وتجديد القوانين الرحيمة بهم التي صدرت في عهد البابا أونوريوس الثالث والبابا إسكندر الثالث.

ومع ذلك فقد أحسّ اليهود بأن المجتمع الأوروبي قد لفظهم، فانزووا السكنى في أحياء وحارات خاصة بهم، كانت تسمى «حي اليهود» أو «حارة اليهود» أو «اليهودية» فقط. وكانت هذه المستوطنات شديدة الزحام كثيرة القذارة، تنتشر جوها الأقاويل الساخرة الحاقدة. إذ كان الناس يعتقدون أنها مأهولة بالسُحَرة والمشعوذين، وأن العفاريت تسكنها مع اليهود. بل إن الرسامين في تلك الفترة تعودوا أن يرسموا اليهودي على شكل الشيطان، له قرنان، وذنب يتدلى وراء قفطانه، وقد يكون له طرف مذبب مثل سنان الزمح[١٧].

وانتشرت كذلك منذ تلك الأزمنة «تهمة الدم» التي تنسب إلى اليهود ذبح بعض المسيحيين، وخلط دمهم بخبز عيد الفصح، وهي تهمة سرت في كل أنحاء العالم، وظلّت تنبثق شرقاً وغرباً حتى مشارف القرن العشرين[١٨].

ففي أوائل القرن الثالث عشر كان يحكم الثلث الأوسط من أوروبا الإمبراطور فردريك الثاني (١٢٢٠ م - ١٢٥٠ م)، واشتهر حكم هذا العاهل الألماني بكثرة الخلافات مع الفاتيكان من جهة ومع بعض الولايات الإيطالية القريبة من المركز البابوي، فاختار طريق الانفتاح العلمي والحضاري لتدعيم سلطته، وراح يقرّب إليه العلماء من مسيحيين ومسلمين ويهود. وكان له قصر في بالرمو بجزيرة صقلية يعتبر مركزاً لهذه الحركة

(١٧) من أمثلة ذلك - وهي كثيرة لا تكاد تحصى - رسم إنجليزي من العصور الوسطى:
Cecil Roth: A short History of the Jewish People: London, 1953; plate 79.

(١٨) من المؤلفات الخاصة بهذا الموضوع:
Albert Monniot: Le Crime Rituel chez les Juifs: Paris, 1914.

الفكرية، كما عني بتقوية الجامعات والكليات، وأسّس جامعة في نابولي، كما وضع الخطوط الأولى لجامعة فيينا. وفي ظل هذا التسامح كثر اليهود في مملكته، فحدث سنة ١٢٣٥ م في مدينة «فولدا» أن انتشرت «تهمة دم»، في غير موسم عيد الفصح، تتلخص في أن رجلاً طحّاناً مسيحياً ذهب مع زوجته إلى الكنيسة، وعند عودته إلى البيت وجد جميع أبنائه ـ ثلاثة أو خمسة على اختلاف في الروايات ـ مذبوحين. واتجهت الشبهة إلى اليهود، فزحفت جموع من المسيحيين على الحي الخاص بهم وذبحوا اثنين وثلاثين ـ وقيل أربعة وثلاثين ـ ذكوراً وإناثاً. واتّسعت الفتنة حتى وصلت إلى مسامع الامبراطور، فأمر بعقد لجنة من اليهود المتنصرين، الذين هم معرفة بالشريعة الإسرائيلية، ليقولوا كلمة الدين في تلك التهمة. وصدر قرار اللجنة بتبرئة اليهود، ولكن السخط الشعبي ضدهم أجبر فردريك على أن يحكم عليهم بدفع تعويضات للمسيحيين.

ووصلت الفتنة إلى بالرمو، فاضطر الامبراطور لتخصيص حي مغلق يسكن فيه اليهود وحدهم، تأميناً لهم، وتجنباً للاضطرابات. وفي رأي كثير من مؤرّخي اليهود أن هذا الحي كان يسمى بالإيطالية «بورجيتو» أي القرية الصغيرة، ثم تآكلت اللفظة مع الاستعمال، فلم يبق منها إلا آخرها «جيتو»، الذي انتشر من بالرمو ليصبح اسمًا لكل الأحياء المماثلة في أوروبا.

ومع ذلك فإن الأخذ بهذا الاشتقاق ما يزال موضع نقاش بين الباحثين. فاللغوي الفرنسي «ألبير دوزا» يقول إن هذه الكلمة لم يرد عليها شاهد إلا في اللهجة الإيطالية لمدينة البندقية «فينيسيا» يرجع إلى سنة ١٥١٦ م، إذ كانت اسماً لحي فيها، توجد به مسابك المعادن، وكان لهذا السبب قذراً ملوثاً بالدخان مجللاً بالسواد، وهو الذي أصبح مسكناً لليهود. ويضيف أن هذه الكلمة لم ترد في النصوص الفرنسية القديمة إلا مرة واحدة ترجع إلى سنة ١٦٩٠ م، ولم تتكرر بعد ذلك إلا ابتداء من سنة

١٨٤٢ م[١٩]. أما معجم «ملتسي» الإيطالي فإنه يذكر أن الجيتو صدر به مرسوم من البابا بولس الرابع في ١٤ أغسطس سنة ١٥٥٥ م، يحتّم على اليهود الإقامة في حي خاص بهم، يغلق عليهم في ساعة معينة من المساء، ولا يفتح حتى مطلع الفجر. وبقي أمر الجيتو سارياً في روما إلى أن ألغاه البابا بيوس التاسع في إبريل سنة ١٨٤٧ م[٢٠]. وأمام هذه المشاكل تقول دائرة المعارف العبرية «أوتسار يسرائيل» أن اشتقاق كلمة جيتو غير معروف. وتروي أن يهودا دي مودينا زار فلورنسا في القرن السادس عشر فوجد اليهود يسكنون في حيٍّ خاص عليه سور، اسمه «جيتو». وتقول إن كلام دي مودينا يحتمل أن يكون الجيتو اسمًا للسور المحيط بالحي، أو اسمًا للحي اليهودي نفسه. ولكن يُفهم من المقال أن اليهود قبل إقرار الجيتو كانوا يختارون لأنفسهم أماكن منعزلة عن الأمم الأخرى، ليقيموا فيها حول معبدهم ومقبرتهم ومدرستهم التلمودية، طبقاً للنظام الاجتماعي الذي وضعه مجلس «القهل»[٢١].

وعلى أية حال فإن حارة اليهود كانت رمزاً للتزمّت، والجمود الفكري والاجتماعي، والعزلة عن الإنسانية، والحقد عليها. فكانت تتعرض لغارات وهجمات من جيرانها لأسباب أساسها في الغالب اقتصادي، هو ثورة الشعوب على الربا اليهودي والتفنّن في ابتزاز الأموال. ولهذه الحارة أسماء أخرى في العالم، لعلّ من أشهرها وأغربها لفظة «الملاح» في المغرب العربي. وربما جاءت من احتراف اليهود تجارة الملح، أو تمليح الأسماك، أو دبغ الجلود باستخدام الأملاح المختلفة لذلك.

وربما كان أول خبر عن مسكن خاص باليهود يرجع إلى ما تذكره

---

(١٩) Albert Dauzat; Dictionnaire Etymologique de la Langue Française; Paris- Larousse, 1938.

(٢٠) Melzi; Il Novissimo Melzi Dizionario Italiano; 33e edizione; Milano; 1950.

(٢١) Ozar Yisrael; An Encyclopedia of all matters concerning Jews and Judism, in Hebrew; Published by J.D. Eisenstein; New York; Volume 3; 1905; p. 276.

التوراة، من إجبار فرعون لبني إسرائيل على البقاء في المكان الذي كانوا قد اختاروه لأنفسهم في إقليم «جوشن» بشرق الدلتا، في موضع يدعى «رعمسيس»، حصرهم المصريون فيه، «وجعلوا عليهم رؤساء للتسخير، حتى يرهقوهم بأعبائهم، فبنوا لفرعون مدينتين للمخازن، بيتوم ورعمسيس»، (الخروج ١: ١١). وبالطبع لم يكن هذا المقام الإجباري يحمل اسم الجيتو في تلك الأزمان السحيقة، ولكنه من نفس هذا القبيل.

والذي نريد أن نستخلصه هو أن اليهود منذ القدم يبدأون طائعين مختارين بفرض حصار على أنفسهم وراء أسوار من العزلة والتزمّت والتعصّب الديني والعنصري ورفض الأمم الأخرى، ثم ما يلبث هذا الحصار أن يصبح إجبارياً بأيدي أعدائهم، لا يستطيعون الفكاك منه. وأشد ما يخشاه كثير من مفكري اليهود في العصر الحديث، هو أن يكون «الوطن القومي» الذي تخيلته الصهيونية في فلسطين، وأصبح أخيراً دولة إسرائيل، مجرد معزل اختياري عالمي لليهود، معرض أن يصبح نوعاً من الجيتو الضخم، التي تنتقل مقاليده إلى القوى العظمى المتحكمة في سياسة العالم، فيبقى اليهود محبوسين فيه، ومن حولهم تلك الأسوار البشرية والحضارية الضخمة التي تتمثل في العالم العربي.

اللاسامية عند اليهود

وتصل عقدة الشعور بالاضطهاد في الشخصية اليهودية إلى ذروتها عندما يصبح الاضطهاد الموجه ضد اليهود نوعاً من العقيدة أو المبدأ السياسي والاجتماعي فيما يسمى «اللاسامية».

وهذه الكلمة من أشد المصطلحات الخاصة باليهود حرجاً، وهي أيضاً من أكثرها وروداً على الألسنة والأقلام، بين اليهود وغيرهم من أمم العالم، ومع ذلك فإن معظم استعمالها في المعسكرين لا يخلو من وهم وتساهل وخطأ ومغالطة. ولفظة «اللاسامية» التي شاعت بين العرب هي ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوروبية «أنتيسيميتيزم»، التي تعني حرفياً «المذهب المعادي للسامية». أما من حيث المقصود الفعلي منها فهو «معاداة اليهود» أو «نبذ اليهود من المجتمع» أو «مناهضة اليهود». لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامي في أوروبا، على حسب الدعوى العنصرية التي أشاعوها هم عن أنفسهم.

أما الخطأ والمغالطة في استعمالها فإنهما يأتيان غالباً من جانب اليهود. فاليهودي يعيش في عقدة الشعور بالاضطهاد بسبب عنصريته، ويتخيل أن كل ما يحل به من مشاكل في علاقاته بالأمم الأخرى إنما يرجع إلى أنه يهودي، يكرهونه لهذا السبب، ويحقدون عليه، ويسعون دائماً لإيذائه، لأنهم مصابون بداء «اللاسامية». ومن أجل هذا كانت تلك الكلمة أكثر رواجاً لدى اليهود منها عند غيرهم.

وهي بلفظها الأوروبي مستحدثة. يقول اليهودي الصهيوني «ليون بولياكوف» في كتابه «تاريخ مختصر للاسامية» إنها استعملت لأول مرة على يد الكاتب الألماني «فلهلم مار» حوالي سنة ١٨٨٠ م(٢٢).

ويبدو أنها صادفت هوىً في أفئدة اليهود، وفتحت لهم آفاقاً جديدة للهجوم والدفاع، إذ جعلوها «تهمة» لكل من لا يرى رأيهم، ولا يساعدهم على تنفيذ مآربهم وإنجاز خططهم، مهما كانت هدّامة ومدمرة. فلا عجب بعد ذلك إذا خصص لها مفكروهم دراسات ومؤلفات، بعضها مختصر كالذي سبقت الإشارة إليه، وبعضها مفصّل مستفيض، مثل كتاب «برنار لازار» الذي ظهر بالفرنسية في مجلدين سنة ١٨٩٤ بعنوان «اللاسامية: تاريخها وأسبابها»، ثم أُعيد نشره مرة أخرى سنة ١٩٣٤ م(٢٣). ونلاحظ أن ظهوره لأول مرة كان في أعقاب قضية «دريفوس»، لأن المتهم فيها كان يهودياً ضابطاً بالجيش الفرنسي. وكانت المحاكم الفرنسية قد أدانت دريفوس بالخيانة العظمى، وتسليم وثائق عسكرية في زمن الحرب إلى قيادة الجيش الألماني. وانبرى المحامي والأديب الفرنسي الكبير «أميل زولا» للدفاع عن دريفوس وهو في سجنه. ولم يكن تحريك زولا للقضية يهدف إلى إنقاذ هذا الضابط السجين، ولكنه كان حركة أساسية في برنامج سياسي يقوم على الاشتراكية الديموقراطية، المناهضة للفكر الرجعي ممثلاً في البورجوازية والكنيسة. وهذا ما يفسر لنا أن الأمر لم يقف عند ساحة القضاء، بل أثار زولا «مشكلة اليهود» كلها في الصحافة وفي الرأي العام بهذه المناسبة(٢٤). وفي نفس الوقت كان الكاتب الفرنسي «إدوار دريمون»

---

(٢٢) Léon Poliakov: Petite Histoire de L'Antisémitisme; Paris: p. 7.

(٢٣) Bernard Lazare: L'Antisémitisme, son Histoire et ses Causes; Paris: 1934.

(٢٤) كان أميل زولا يمنح صداقته وتأييده لليهود فرنسا، تدعيماً لركائز سياسية واجتماعية يريد منها كسب أنصار جدد للاشتراكية الليبرالية التي كان يدعو لها، من هؤلاء الأصدقاء برنار لازار صاحب كتاب اللاسامية. وقبل انغماسه في قضية دريفوس كانت له كتابات كثيرة في صالح اليهود من أشهرها «اللاسامية والصحافة الدنسة» في صحيفة «الفيجارو» يوم ٥ ديسمبر ١٨٩٧ م.

http://al-maktabeh.com

يقود معركة عكسية بكتابه الخطير «فرنسا اليهودية» الذي نشره سنة ١٨٨٦ م[٢٥]، أي قبل صدور الحكم على دريفوس ببضع سنوات، إذ أن الحكم قد صدر على أثر المحاكمة الأولى سنة ١٨٩٥ م. واشتهرت كتاب فرنسا اليهودية بأنه من أمهات الكتب التي تأخذ مسلك اللاسامية. والواقع أن قضية دريفوس كانت ذات أبعاد على أكبر جانب من الخطورة، بسبب الأحداث التي لابستها:

فالاتحاد الإسرائيلي العالمي الذي قام في باريس منذ عام ١٨٦٠ م كان يمارس برنامج إنعاش فكري واقتصادي واجتماعي بين يهود العالم، كما كان ينشىء مستوطنات يهودية في فلسطين.

وفي إنجلترا كانت الجمعية الإنجليزية اليهودية تمارس نشاطاً من نفس النوع منذ سنة ١٨٧١ م.

وكانت سويسرا قد اعترفت بالحقوق المدنية لليهود بقانون صدر عام ١٨٦٣ م.

= L'Antisemitisme et la presse immonde; Le Figaro, 5 Décembre 1897.

ثم أصدر بعد ذلك منشورات مستقلة أهمها «رسالة إلى الشباب» «رسالة إلى فرنسا».

Lettre à la Jeunnesse- Lettre à la France.

أما أهم ما كتبه في قضية دريفوس فهو مقال بعنوان: أنا أتهم! في جريدة «لورور» ـ الفجر ـ عدد ١٣ يناير ١٨٩٨ م.

Emile Zola: J'Accuse!- L'Aurore 13 Janvier 1898.

وهو خطاب مفتوح موجّه إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، يعلن فيه زولا تبرئة دريفوس، ويذكر من سمّاهم المتهمين الحقيقيين في القضية. وقد أحدث المقال ضجة كبيرة، ووزّعت الصحيفة يومها ثلاثمائة ألف نسخة، وهو رقم قياسي في أوروبا وأمريكا في تلك الأيام.

ويؤكد بعض الباحثين أن عنوان المقال من اختيار السياسي الفرنسي الداهية كليمنصو وأن المقال نفسه من إملاء برنار لازار. المرجع:

Henri Durait- Crozon; Précis de l'Affaire Dreyfus; Paris, 1924; p. 125.

(٢٥) Edouard Drumont; La France Juive; Paris, 1886.

وفي أوروبا الشرقية كان الوعي اليهودي القومي قد بلغ ذروته بسبب الاضطهاد الذي كان يجتاح اليهود أحياناً، ثم يخف عنهم في فترات معينة. إلى أن ظهرت أول منظمة صهيونية علنية على يد شباب من يهود أوديسا في روسيا سنة ١٨٨٣ م، هي «أحباء صهيون» ثم انتشرت لها فروع في كثير من بلدان أوروبا الشرقية، وفي بولونيا على الخصوص.

أما يهود أمريكا فقد قامت فيهم حركة تحررية تهدف إلى ترك التزمّت القديم، وكان ذلك سنة ١٨٨٥ م، فقد اجتمع عدد من الحاخامين الأمريكان في بيتسبورج بولاية «بنسلفانيا» وقرروا تكوين «المذهب الإصلاحي» الذي يرمي إلى أن يتخذ اليهودي مكانه في الحضارة الحديثة.

كل تلك الملابسات جعلت قضية دريفوس حَدَثاً هاماً جداً في التاريخ اليهودي الحديث. وكان يقيم في باريس في تلك الأثناء «تيودور هرتسل»، ويعمل مراسلاً لصحيفة نمساوية تصدر في فيينا باسم «نويه فراي برسه» أي الصحيفة الحرّة الجديدة. وحوالي نفس الوقت الذي كان زولا يحرّك فيه الجماهير في صالح اليهود، وكان دريمون يحرّكها في الطريق العكسي، وكان برنار لازار يصدر كتابه عن اللاسامية، وكانت الجماهير الفرنسية تتطاحن في تلك العاصفة، رأى هرتسل أن الحل الجذري للمشكلة اليهودية هو في إقامة وطن لهؤلاء الناس يبتعدون فيه عن الأمم الأخرى، تحكمهم حكومة منهم، وانطلاقاً من هذه الفكرة نشر كتابه المشهود - بالألمانية - «دولة اليهود»(٢٦). ثم تزعم حركة تهدف إلى تحقيق الحلم الذي يراه، هي «الصهيونية»، التي عقد لها المؤتمر العالمي الأول في بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ م، حيث قرر المجتمعون بكل بساطة «اغتصاب فلسطين» لتكون في المستقبل هي «دولة اليهود».

وما دمنا نتحدث عن عقدة الشعور بالاضطهاد وأثرها في الشخصية

---

(٢٦) Theodor Herzel: Judenstaat.

الإسرائيلية، فإننا نشير إلى أن طبعة ثانية من كتاب برنار لازار «اللاسامية» ظهرت سنة ١٩٣٤ م، بعد وفاة المؤلف بإحدى وثلاثين سنة، ولم يكن ذلك بالصدفة. إذ كان الحزب النازي الذي يتزعمه هتلر قد أصبح حزب الأغلبية في ألمانيا، وكانت اللاسامية من النقط الأساسية في برنامجه.

وإذا كانت كلمة اللاسامية من الألفاظ المستحدثة، لم يمض على صنعها قرن من الزمان فإن مفهومها في الأذهان قديم، شأنها شأن الجيتو. فالمفكرون في التاريخ اليهودي يعتبرون فرعون موسى رائد اللاسامية الأول، ثم تتوالى الأجيال فيرى اليهود بختنصر الكلداني، وفسبازيان وتيتوس وهدريان وغيرهم من أباطرة الرومان الساخطين على اليهود، وكذلك بعض البابوات في روما في العصور الوسطى، ثم حملات التنكيل التي كان يقوم بها سكان أوروبا الشرقية على يهودهم مما يسمى «بوجروم».

ولم يكن تعرّض اليهود لمثل تلك الشدائد بسبب دينهم كما يزعمون، ولكنها الأطماع الاقتصادية والسياسية، والمصالح المادية التي تتخفى وراء الدين، لتكون إثارة الفتنة وإشعال نار التعصّب أسهل وأسرع أثراً. وتعرّض اليهود للاضطهاد المتكرر الذي غرس في قلوبهم ما نعلم من الحقد على أمم العالم له أسباب أعمق من أنهم يهود، ولكن اللاسامية كانت وما تزال تهمة مريحة جداً، سهلة الاستعمال، يضعون على حسابها كل أوزارهم. وليس معنى ذلك أن اللاسامية فكرة وهمية، فهي واقع لا شك فيه، نلحظه في تعامل أمم العالم أحياناً مع اليهود، ولكن أمم العالم ليست مجنونة بحيث تتنكر لفئة من الناس ظلماً وعدواناً وبغير سبب، فأسباب اللاسامية كثيرة جداً، تعود المسؤولية في معظمها إلى الشخصية اليهودية نفسها. وهذا برنار لازار الكاتب اليهودي الذي عالج الموضوع يجعل عنوان الفصل الأول من كتابه: الأسباب العامة للاسامية، وتحت هذا العنوان يضع قائمة طويلة من الأسباب، كلها صادرة عن تطرّف اليهود، وتعصبهم، وخلطهم السياسة بالدين، ووضع ذلك كله تحت شعار التكتل

العنصري، وما يداخل أنفسهم من كبرياء تتجلى في اعتقادهم أنهم شعب الله المختار، مما أدى إلى تقوقعهم وعزلتهم، وتبرير تلك العزلة بالخوف من أن يتنجسوا بالاختلاط بالأمم الأخرى، وما ترتب على ذلك من أوضاع مادية وروحية وثقافية تجعلهم منبوذين مكروهين. هذا ما يقوله المؤلف اليهودي في تعليل اللاسامية من جانب قومه، وهو بالطبع ينتقل إلى ما كان لذلك من رد فعل عند الأمم الأخرى، وهو مهما كان عنيفاً وقاسياً، لا ينساب من قوة مجنونة لا ضابط لها.

لكل ذلك ينبغي الحذر الشديد أمام لفظة اللاسامية، ويتعين التأكد من صحة استعمالها وتوجيهها توجيهاً عادلاً كلما صادفناها لا سيما عندما تروّجها أجهزة الدعاية اليهودية. ومهما يكن من شيء فإن هذه التهمة على كثرة الالتجاء إليها من جانب اليهود، لا يستقيم إلصاقها بالعرب، فالعرب ساميون أيضاً وحضارتهم من أكثر الحضارات تسامحاً، وبخاصة مع اليهود. فما من شك أن أثمن ما تحتفظ به الثقافة الإسرائيلية، بعد التوراة والتلمود، إنما ترعرع في ظل العروبة والإسلام، وهو العصر الذهبي للآداب والعلوم والفنون عند اليهود. يكفي أن لغتهم لم تعرف النحو والصرف والمعاجم والتفاسير وتفصيل الأحكام الشرعية والكتابة في الفلك والرياضيات والفلسفة والأخلاق والكيمياء والطبيعة وعلوم النبات والصيدلة والطب والملاحة إلا في العصر العربي. ويكفي أن أجمل ما في العبرية من روائع الشعر والنثر وأدب الرحلات والموسيقى والغناء إنما كان بمجاورة العرب وبتأثير من أساتذتهم[٢٧]. ثم إذا كانت اللاسامية تفترض أن اليهود

(٢٧) تاريخ الفكر اليهودي في العصور الوسطى الإسلامية يعتبر وحده ميداناً للبحث العلمي التخصصي، ولا يكاد عدد الذين أسهموا في هذه الحركة الناهضة المتحررة يحصى، ولكن نذكر على سبيل المثال:

سعديا سعيد بن يوسف الفيومي، الحاخام الأكبر للعباسيين في بغداد، لغوي، وفقيه، ومفسّر - أبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي، لغوي، مؤلف أقدم معجم أبجدي معروف للغة العبرية - يهودا بن قريش المغربي، لغوي - أبو زكريا يحيى بن داود حيوج، لغوي - =

ضحية، وأن من يؤمن بهذا المسلك هو المعتدي، فالوضع معكوس تماماً في ظل الصهيونية: العرب هم الضحية، والمعتدي هو التكتل الصهيوني.

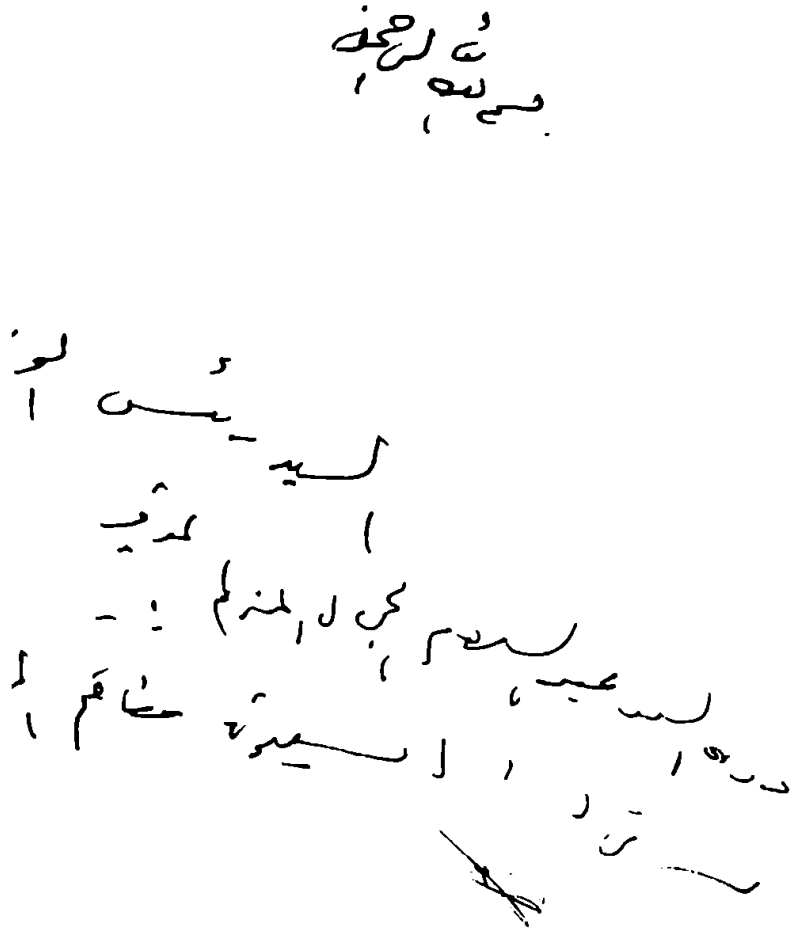

- صمويل بن نغريلة الأندلسي، وزير وأديب، ورجل سياسة واقتصاد - حشداي ابن شروط، كاتب وأديب ورجل سياسة - مناحم بن سروق، لغوي - دونش بن لبرط، لغوي أدخل أوزان الشعر العربي طبقا للخليل بن أحمد إلى الشعر العبري - بحياي بن فاقودة، فيلسوف وفقيه وعالم أخلاق - ابن تبون، كاتب ومترجم - يهودا الحريزي، رحّالة وأديب وشاعر أول من أدخل فن كتابة المقامات في الأدب العبري - أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي، طبيب ونحوي لغوي، وهو أشهر نحاة اليهود - يهودا اللاوي، أديب وشاعر وعالم في العقائد، صاحب كتاب الخزري - إبراهيم بن عزرا شاعر وكاتب ولغوي، ومن أكثر اليهود تبحرا في علوم البلاغة - ابن جبيرول، فيلسوف وفلكي وكاتب وشاعر، اشتهر بقصائده الدينية - موسى بن ميمون، طبيب وصيدلي وفقيه وعالم في العقائد، مؤلف «دلالة الحائرين» - بنيامين التطيلي، فلكي ومؤرخ ورحّالة يهودي أندلسي، كتب رحلة مشهورة جدا.

وقائع التنكيل باليهود
«البوجروم»

لقد مرّت بنا لفظة «بوجروم» في الحديث عن ذروة السخط على اليهود في أوروبا الشرقية. والكلمة روسية الأصل، تعني التنكيل، أو «النكال»، وهو الغارة الشعواء التي يشترك فيها العامّة متجهين إلى مراكز التجمّع اليهودي للفتك بها.

ويقسم كتاب اليهود البوجروم إلى نوعين:

أحدهما تلقائي، يشبّ فجأة كالحرائق أو البراكين. وكان يحدث عادة على أثر وجود قتيل روسي مسيحي على مقربة من تجمّع يهودي، أو اختفاء شخص في ملابسات تثير الشبهة حول اليهود. وقد تكون هناك رواسب من الحقد ضدهم بسبب الديون والربا، وما يضاف إلى ذلك من طمع بعض الهمج في مقتنيات اليهود.

والثاني هو المخطط المرسوم الذي سبقه تدبير سرّي اشترك فيه بعض أنصار اللاسامية، وقد يحصلون قبل التنفيذ على إغضاء المسؤولين في المنطقة، أو على موافقتهم، ويكون لهذا النوع هدف معين تعمل الغارة العنيفة على إنجازه.

ومن أشهر غارات النكال المدبَّرة تلك التي حدثت في جنوب روسيا عام ١٨٨١ م. فقد كانت أعصاب الروس متوترة على أثر حرب القرم بينهم وبين تركيا العثمانية سنة ١٨٧٧ م، ومنذ ذاك الوقت ظهر سخط الروس على

اليهود في الجنوب، بالقرب من أوديسا، ولا يقول المؤرخون اليهود لماذا، لكن الواضح أن يهود الجنوب الروسي وضعوا أنفسهم في موقف المستفيد من الكارثة، بالتلاعب في الاقتصاد، مع بعض محاولات من جانب الزعماء اليهود للتفاهم سرّاً مع الأتراك، على أمل الحصول على تيسيرات للهجرة إلى فلسطين. لذلك لم يكن هذا النكال منبثقاً من العوّام، بل كان يتزعمه المثقفون ووجهاء المجتمع الروسي، ثم تحول في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر إلى حركة عدائية حقيقية انتشرت بين الطلبة في المدارس الثانوية والكليات، ولا سيما في مدينتي أوديسا وكييف. وفي ١٥ إبريل سنة ١٨٨١ م انفجر بوجروم من هذا النوع في منطقة «خرسون»، وانتقل منها بسرعة إلى كييف وأوديسا وعدد كبير آخر من البلدان الروسية.

ومما يُشعرنا بأن هذا النكال لم يكن كله ظلماً وعدواناً، أن من بين مدبّريه حزباً سياسياً سرياً اسمه «نورود نيافوليا» أي «الاشتراكية الثورية»، وكان يضم كثيراً من اليهود، اشتركوا هم أيضاً في الحملة. وإلى جانب هذا التنظيم كانت هناك جمعيات أخرى تدعو إلى التغيير الشامل في أوضاع روسيا القيصرية، منها جمعية تسمى «بوجوروف» تصدر منشورات تطالب فيها بوضع حدّ للعربدة اليهودية في مقدّرات الوطن، وكان بعض أعضائها من اليهود. كما كانت لها صحيفة تسمى «ليستوك نورودني فولي» تعلن عن مسؤولية الجمعية عن بعض حوادث النكال، ومن ذلك ما ظهر في عددها الأول بتاريخ ٣٢ يوليه ١٨٨١ م، كذلك دعت في العدد السادس إلى الاستمرار في التنكيل باليهود لأنهم يمتصّون دماء الشعب، ويعوّقون تحرره وتقدمه. وفي عدد ٢٦ أكتوبر ١٨٨١ م تدافع الصحيفة عن المشتركين في الحملات ضد اليهود، وتصفهم بأنهم مواطنون شرفاء، أبرياء، لم يرتكبوا أي جرم. كل ذلك يشهد بأن وراء السخط الشعبي الموجه نحو اليهود على هذه الصورة العنيفة أعمالاً يهودية لا ندّعي أنها تبرره، ولكن نقول بالتأكيد إنها كانت بمثابة الشرارة التي أشعلت الحريق كله. ويقول اليهود إن السلطة القيصرية كانت تقف موقفاً متراخياً في حماية ضحايا النكال،

ولكن شهود العيّان، وتقارير بعض المسؤولين الروس في قوات الأمن تؤكد أن موجة الغضب الشعبي على اليهود كانت تكتسح كل شيء، على نحو يُخشى معه أن تتطور الأمور إلى ثورة شعبية شاملة أو حرب أهلية. وكان بعض هذا الهيجان الشعبي يستمر عدة أيام، ففي أوديسا استمر خمسة أيام كاملة، من ٣ إلى ٧ مايو ١٨٨١ م، وأرسلت الحكومة الروسية وحدات من الجيش لمساعدة الشرطة في إعادة النظام، ولكن كثافة الجماهير، وفظاعة المناظر التي شهدها الجنود أخافتهم من التصدي للشعب. وبعض مؤرخي اليهود يتهمون الشرطة الروسية بالظلم، ويقولون إنها في نهاية المأساة راحت تقبض على بعض اليهود، بدلاً من مرتكبي الغارة. والواقع أن التجمعات اليهودية كانت قد نظمت لها حرساً إسرائيلياً مسلحاً يتولى التصدي للمهاجمين، مما اعتبرته الحكومة الروسية مخالفاً للقانون، وكانت الحكومة القيصرية إذ ذاك كثيرة المخاوف من المؤامرات والحركات السرية والانقلابات، وكان عندها علم اليقين بأن عناصر يهودية تشترك في كثير من ذلك، بعضها فوضوي يريد إسقاط الحكومة لمجرد التخلّص منها، وبعضها شيوعي يريد إسقاط الحكومة وإقامة جمهورية اشتراكية ماركسية. وباختصار كان موقف اليهود معقداً جداً، فلا هم يتمتعون برضا الشعب، ولا هم يستظلون بثقة الحكومة.

وكانت روسيا القيصرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تضم نصف يهود العالم في أراضيها. ففي إحصاء سنة ١٩٠٩ م كان عدد اليهود المستوطنين في روسيا القيصرية والأراضي الواقعة تحت نفوذها ٥,٢١٥,٠٠٠، وكان عدد يهود العالم جميعاً إذ ذاك ١١,٥٠٠,٠٠٠. وكانت هذه الجالية الكبيرة قد بدأت تتخذ صورة المشكلة الحقيقية في عهد الامبراطورة كاترين (١٧٢٩ م ـ ١٧٩٦ م) إذ حدثت في عهدها منازعات على مناطق النفوذ مع روسيا والنمسا. وكان اقتسام بولونيا هو أهم ما في الموضوع، وقد حدث اتفاق على التقسيم ثلاث مرات من ١٧٧٢ م إلى ١٨٧٣ م، وفي كل مرة كانت روسيا تحصل على مزيد من الأراضي

البولونية، حتى زالت بولونيا من الخريطة بعد التقسيم الثالث، ولم تسترد استقلالها إلا بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م-١٩١٨ م. وفي هذا التقسيم ضمّت روسيا كذلك مقاطعات أوكرانيا، وروسيا البيضاء (بيلوروسيا)، وأقاليم بحر البلطيق، فكان هذا من أهم أسباب الزيادة الكبيرة في عدد اليهود الروس، لأن تلك الأقاليم - وبخاصة بولونيا - كانت مهجراً لليهود منذ القِدَم. وكانت عداوة الروس لليهود - بسبب الترفّع اليهودي والعزلة عن المجتمع - واضحة منذ القرن السابع عشر، واتخذت صورة المذابح، في غارات القوازق بقيادة زعيمهم «شميلنيكي».

وحاولت الامبراطورة كاترين أن تفرض رقابة حكومية على التجمعات اليهودية الكبيرة، فأصدرت القوانين التي تحدد المناطق التي يقيم فيها اليهود، وتجعل الانتقال منها بإذن استثنائي. وهذه المناطق هي التي تسمى بالعبرية «يشوب» وكانت لا تستعمل اللغة الروسية ولا تدفع الضرائب بصدق ونزاهة، هذا إلى جانب انضمام الكثيرين من اليهود إلى الحركات السياسية السرية. فقد ظهر من سجلات الشرطة القيصرية أن نسبة اليهود بين المعتقلين السياسيين كانت ١٣,٤ في المائة بين سنتي ١٨٨٤ م - ١٨٩٠ م -، ثم ارتفعت إلى ١٨,٧ في سنة ١٨٩٨ م -، ثم ٢٤,٨ في سنة ١٨٩٩ م، بينما كانت نسبة عدد اليهود إلى مجموع السكان في إحصاء سنة ١٨٩٧ م هي ٤,١ في المائة.

ويذكر بوكورفسكي في دائرة المعارف السوفيتية أن نسبة اليهود كانت تتراوح بين الربع والثلث في جميع الحركات الثورية المنظمة.

ويبدو أن الشخصية اليهودية التي تؤثر العزلة، وتسعى من خلالها إلى السيادة على العالم قد شطرت يهود روسيا في أواخر القرن التاسع عشر شطرين، أحدهما ثوري ديموقراطي اشتراكي، والآخر صهيوني. وليس من قبيل الصدفة البحتة أن تكون سنة ١٨٩٧ م هي السنة التي تكونت فيها المنظمة الماركسية العمالية «البوند» التي كانت أول اتحاد عام للعمال اليهود

في روسيا وبولونيا وليتوانيا، وأن تكون هي نفس السنة التي تكونت فيها أيضاً «الصهيونية العالمية» في مؤتمرها الأول في بال.

وكانت العلاقة بين الاتحاد العمالي «البوند» والصهيونية علاقة عداوة واختلاف في المبدأ. فالبوند يطالب باستقلال ذاتي للطائفة اليهودية، تتمتع في ظله بالشعور القومي، وبالحرية الدينية والثقافية في داخل الوطن الروسي، بينما كانت الصهيونية باتجاهها إلى استعمار فلسطين تمثل في نظر البوند حركة رجعية عمادها البورجوازية اليهودية الصغيرة، مما يؤدي إلى تحويل اهتمام القاعدة اليهودية العريضة عن النضال الطبقي من اجل الخلاص. والصهيونية من جانبها كانت تتهم البوند بأنه دعوة ذات صفة العالمية، والاندماج في الأمم الأخرى، مما يمثل في نظرها خطرا على كيان اليهود كشعب، وعلى خصائصهم التراثية.

ويقدّر مؤرخو اليهود في تلك الفترة عدد الأعضاء المسجلين في منظمة البوند بنحو ٧٠,٠٠٠ عضو. أما الصهيونية فقد انضوى تحت لوائها ما لا يقل عن ١٢٠٠ جماعة من «أحباء صهيون» وغيرها من المنظمات اليهودية المحلية، بحيث كان عدد أعضائها عند ظهور وعد بلفور أكثر من ربع مليون عضو، في تقدير بعض المؤرخين اليهود مثل «برون» الذي يميل إلى شيء من المبالغة.

والجدير بالتأمل هو أن الشيوعية السوفيتية كانت ترفض الحركتين جميعاً، البوند والصهيونية. وموقفها من الصهيونية كان إذ ذاك واضحا. فهي حركة بورجوازية رأسمالية متحالفة مع الاستعمار، وإن كان الموقف قد تغير من الناحية العملية، فكانت روسيا في مقدمة الدولة التي أيدت اليهود واعترفت بإسرائيل. وربما كان ذلك على أساس ما خلّفته الحرب العالمية الثانية في نفوس الروس من عداوة للهتلرية النازية، وهي عداوة شاركوا فيها اليهود الذين كانوا من ضحايا هذا المذهب السياسي.

وأما كراهية الشيوعية للبوند فترجع إلى إنكار الماركسية للذين

http://al-maktabeh.com

كأساس للقومية، وإلى أن اليهود في نظر أقطاب الشيوعية، ونخصّ بالذكر منهم كارل ماركس ولينين وتروتسكي وستالين، ليسوا أمة، ولكنهم طائفة ذات تقاليد خاصة أكثرها يجب أن يزول أو أن تخف وطأته كثيراً حتى يندمجوا في المجتمعات المتحضرة المحيطة بهم.

والذي نخرج به من هذا كله هو أن الشغب اليهودي في شرق أوروبا، كان أعمق سياسياً واجتماعياً من أن يفسر بالتعصب الديني كما يريد السطحيون من كتاب الصهيونية. فقد استمر هذا الشغب في ظل الشيوعية، وبعد إلغاء التكتلات الدينية بشتى مظاهرها في الاتحاد السوفيتي، واستمر معه كره الروس لليهود، حتى فكر المسؤولون السوفييت في تخصيص إقليم في جنوب البلاد للتجمع اليهودي، على أن يكون في النهاية جمهورية سوفيتية باسم «بيروبيجان»، ومع ذلك فقد تكفلت الصهيونية بفشل هذا المشروع. وإذن فعندما يصف كتاب اليهود البوجروم بأنه عدوان مجاني من جانب المتعصبين موجه ضد شعب الله المختار، فإن وصفهم هذا لا يمكن النظر إليه إلا على أنه مغالطة. فالشخصية الإسرائيلية كثيراً ما تظهر بمظهر استفزازي في المقدّرات الاقتصادية للناس، تدعو السوقة والغوغاء من المتضررين بالعبث اليهودي إلى استعمال العنف، والعنف قوة جنونية إذا أفلتت وجمحت لا يدري أحد كيف تنتهي. وكان البوجروم من مظاهر جموح هذه القوة الجنونية، حتى في القرن العشرين، في عصر التسامح الديني الذي وصل في بعض بقاع العالم إلى إنكار الأديان، ويكفي من أمثلة البوجروم في روسيا في السنوات الخمس الأولى من هذا القرن، أي في نفس الفترة التي كانت الدعوة الماركسية تنتشر فيها بسرعة في هذه البلاد، الحوادث التالية:

في نيقولاييف سنة ١٩٠٠ م، وفي أوديسا سنة ١٩٠١ م، وفي كيشينيف ٦، ٧ إبريل سنة ١٩٠٣ م، وفي هوميل من ٢٩ أغسطس إلى أول سبتمبر سنة ١٩٠٤ م، وفي جيتومير ٢٣، ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٥ م، وكذلك في

أماكن متعددة من المستوطنات اليهودية الأخرى في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٥ م.

وقد أشرنا إلى أن اليهود لم يكونوا دائمًا حكماء في علاج هذه النوبات العنيفة التي يتعرضون لها، وأنهم فكروا في مقابلة القوة بالقوة كثيراً، كما حدث قبيل وقوع بوجروم شهر مايو سنة ١٨٨١ م في أوديسا. ولم تكن الصهيونية بعيدة عن هذه التصرفات الرعناء، فقد كان يتزعم التنظيم العسكري اليهودي المذكور كثير من المنتمين إلى أحباء صهيون، في مقدمتهم الأديب «ربينوفيتش» الذي كان يوقّع مقالاته باسم «بن عمي» والقانوني «كلمنوفيتش»، والدكتور «خفكين» المشهور بمستحضر طبي ضد الكوليرا، وغيرهم. وقد انتهى الأمر إلى أن أصبح الروس يرون في هذا الحرس القومي اليهودي تحدياً لهم، فكانوا يتعاملون مع أفراده بقسوة شديدة جداً. ففي أكتوبر ١٩٠٥ م شبّ بوجروم شنيع في أوديسا، كان عدد القتلى فيه من أفراد التنظيم العسكري اليهودي وحدهم خمسة وخمسين. وكم من الضحايا اليهود وغير اليهود قد أودت بحياتهم حماقة الشعور اليهودي بعقدة اضطهاد، يتوهمونها فيتخذون بسببها موقفاً وسلوكاً من البشر، فإذا دارت عليهم الدوائر وجدوا في ذلك تأكيداً جديداً لهذه العقدة. وهكذا نجد الحلقة الجهنمية المفرغة التي يدور فيها اليهود تظهر في كل جيل وفي كل حضارة بشكل مختلف، بينما الجوهر واحد وهو رفض الشخصية الإسرائيلية الدخول في المجتمع الإنساني دخولاً شريفاً أساسه المساواة التي لا تعرف ميزة لشعب على آخر، إلا بما يضيفه إلى رفاهية البشر من ابتكارات وإنجازات ومظاهر من الحضارة الحقيقية.

بروتوكولات حكماء صهيون

إذا كان البوجروم هو الجانب الدموي من المشكلة القائمة بين إسرائيل وأمم العالم، فإن الصراع الفكري لا يقل خطورة عنه في شيء. وقد أشرنا إلى كتابات اليهود عن اللاسامية، وإلى كتابات أعدائهم ضدهم، وبخاصة ما كتبه الفرنسي «دريمون». ولكن هناك أيضاً كتابات مجهولة المؤلف، وكثيرة جداً، كانت تنتشر في أماكن متعددة من العالم إما للدفاع عن اليهود، وإما لتشويه صورتهم عند الناس، وإضافة مزيد من الوقود إلى نار الحقد المشتعلة بين الجانبين. ومن أشهر هذه الكتابات المجهولة المصدر كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون». فأعداء اليهود يحاولون إقامة الأدلة على كون هذا الكتاب وثيقة حقيقية تتضمن تخطيطاً شيطانياً يريد به اليهود تدمير جميع مصادر القوة لدى أمم العالم ثم استعباد هذه الأمم، بينما يتبرأ اليهود منه، ويعلنون اشمئزازهم من الذين يلقون مسؤوليته عليهم.

ويذكرون لهذا الكتاب بدايات مريبة، تصادف نفس الفترات التي انتشرت فيها غارات البوجروم في روسيا. وقع الكتاب في يد أحد رجال الدين الروس واسمه «نيلوس» سنة ١٩٠١ م كما يقول الرواة، ويبدو من سياق القصة أن الكتاب كان مجموعة صفحات مكتوبة بأكثر من لغة، بالعبرية، واليديش، والفرنسية، والألمانية وغيرها، ولم يكن له ترتيب ولا عنوان، بل كان أشبه بمسودات جمعية سرية تضم جماعة مختلطة من الناس،

يجمعهم الحقد على البشر. فتولى سرجي نيلوس ترتيب هذه الصفحات وترجمتها إلى اللغة الروسية، وإخراجها في نشرة قليلة النسخ سنة ١٩٠٢ م. وعلى غلافها ما ترجمته: سرجي نيلوس - خطير ينتهي إلى حقير - المسيح الدجال - حادث سياسي محتمل الوقوع - مذكرات مؤمن مستقيم (أرثوذكسي).

ومع اشتداد البوجروم سنة ١٩٠٥ م تظهر طبعة ثانية بالروسية أيضاً بنفس العنوان على غلافها، مع عبارات: الطبعة الثانية، منقحة مزيدة - «القرية القيصرية»، مطبعة القرية القيصرية، التابعة للجنة الصليب الأحمر، سنة ١٩٠٥ م.

ويبدو أن اليهود كانوا يتعقبون طبعات هذا الكتاب فيشترونه ويعدمونها، فقد طبعت طبعة أخرى سنة ١٩١١ م، واختفت كذلك بنفس الطريقة. كما طبع سنة ١٩١٧ م، وهي سنة قيام الحكم الشيوعي في روسيا، فصادرته حكومة الثورة وحرمت نشره في روسيا حتى الآن.

ولكن نجت نسخة واحدة من الطبعة الثانية سنة ١٩٠٥ م، إذ انتقلت إلى لندن، ودخلت ضمن مكتبة المتحف البريطاني بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦ م. وهذه النسخة تحمل تصريح رقابة المطبوعات في موسكو بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥ م.

وصدرت ترجمة انجليزية للبروتوكولات، على أثر قيام ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ م في روسيا، نظراً لوجود نبوءة بقيام هذه الثورة في البروتوكولات، أي قبل وقوعها بخمسة عشر عاماً، ولقيت البروتوكولات رواجاً فأعيد طبعها مراراً وترجمت لكثير من لغات العالم.

أما الجانب اليهودي فإن أهم من عبّر عنه هو **الحاخام الفرنسي موريس ليبر**[٢٨] بقوله: «لقد كشفت الأميرة رادزيفيل، التي تقلبت بين

(٢٨) ظهر تعليق الحاخام موريس ليبر لأول مرة في مجلة يهودية فرنسية اسمها «الإيمان =

الطبقات العليا للمجتمع في كثير من عواصم أوروبا عن نشأة البروتوكولات. وهذه الأميرة قد سجّلت مذكراتها العجيبة حول كل ما رأت وسمعت. وكان كشفها عن البروتوكولات، التي حضرت مولدها، بمحاضرة ألقتها في نيويورك، ثم في مقال ظهر في المجلة العالمية، عدد ١٥ مارس ١٩٢١ م. ويستفاد من تصريحاتها أن الشرطة السياسية الروسية (أوخرانا) كانت قد أرسلت إلى باريس اثنين من رجالها سنة ١٩٠٥ م، كلفتهما بصنع ما يسمى البروتوكولات، بحيث تحتوي على ملخص للنشاط اليهودي عبر القرون، وتصور الإسرائيليين على أنهم الخطر الأكبر الذي يهدد الحضارة الأوروبية، وجميع الأسر المالكة. وقد حضر الرسولان إلى باريس، لينضما إلى راتشوفسكي مدير الشرطة السرية الروسية، وكان أحدهما يحمل اسمًا مستعاراً هو «منسافيتش مانيولوف»، وقد افتضح أمره فيما بعد كجاسوس عميل للألماني «شتورمر»، كما كان أقرب الأصدقاء والناصحين للراهب الروسي الأفاق السفاح راسبوتين. أما الرجل الثاني فقد دعا نفسه «ماتيو جولفينسكي»، وكانت شخصيته مريبة أيضاً كما كانت أمه صديقة للأميرة رادزيفيل نفسها، مما سمح له بالذهاب لزيارة الأميرة في باريس، حيث كشف لها عن الغرض من رحلته، وأطلعها على عمله.

وقد تسببت هذه البروتوكولات السخيفة الزائفة في القضاء على الآلاف من اليهود الروس، كما بدأت تلعب بعقول الآلاف من المسيحيين، وهو أمر مؤسف، ولكنه لا يدعو إلى كثير من الدهشة، فنحن نعلم أن الإنسان عندما ينزف منه دم كثير يضعف تفكيره. وهكذا يمكن القول بأن الكثيرين من معاصرينا بعد هذه الحرب الدامية قد أصبحوا مستعدين

= والوعي».

Maurice Liber; Les Protocoles des Sages de Sion; Foi et Reveil. XIV. 38 ss

وأعاد نشرها الكاتب الصهيوني الفرنسي أدمون فليج في الجزء الثاني من كتابه «مختارات يهودية».

Edmond FLag. Anthologie Juive; Paris. 1923; Tome II. p. 220- 222.

http://al-maktabeh.com

لتقبّل أية دعوة عدائية، ولأجل إقناعهم بوجود مؤامرة رهيبة يكفي إخراج الكابوس الذي يحملونه في داخلهم إلى الخارج، كما أن الكنيسة الكاثوليكية تتطوع باتهام أعدائها بالتخطيط للسيطرة على العالم، كما فعلت ذلك مراراً من قبل.

أما اليهودية، التي ليست لها كتابات سرية، فإنه ينبغي لها جهل فريد من نوعه، أو ما يشبه ذلك من سوء النية، حتى يمكن تشويه أمالها في المستقبل. وقد ذهب بعض الناشرين الروس للبروتوكولات، بعد أن رأى أن الصهيونية حديثة ومتقدمة جداً، إلى حد أن تخيّل أن هذا المخطط السياسي (البروتوكولات) قد عمل قبل المسيح بمدة ٩٢٩ سنة، على يد سليمان وحكماء مملكة اليهود. والواقع أن حكماء صهيون هم المشرّعون والأنبياء، الذين صدر عنهم الكتاب المقدس. ومفسروهم هم شيوخ المعبد اليهودي، الذين أوّلوا نص نبوءة أشعيا عن رب الجنود، تلك النبوءة التي مجدها عدل الرب القدوس، وكرستها الشريعة، وهي: سيأتي يوم يكون فيه الله معبوداً من جميع الخلائق التي ستكون عصبة واحدة، تتم إرادته بقلب واحد. وعندها سيردّ إلى الشعب المختار اعتباره، ويجمع شمله. وسيرى ذلك الأبرار ويفرحون. وسيخرس الظلم، ويتلاشى الخبث كالدخان، وتختفي مملكة الشر من فوق الأرض، ويملك الرب وحده على كل الخلائق في أورشليم، مقر جلالته. ـ هذا هو مَثَلنا الأعلى».

ونلاحظ أن الحاخام ليبر يتجاهل أن هناك طبعة روسية من البروتوكولات توجد نسخة منها بالمتحف البريطاني، وترجع إلى سنة ١٩٠٥ م، أي قبل حملة الإعلام التي قامت بها الأميرة رادزفيل بسنين. ثم إنه يعلّل ظهور البروتوكولات بالنتائج النفسية للحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م، والبروتوكولات مطبوعة قبل ذلك بكثير أيضاً. ويحاول إضفاء نوع من التحقيق العلمي على روايته بذكر شخصين من النكرات، ينسب إليهما الانضمام إلى مدير الشرطة السرية الروسية لتأليف هذه

البروتوكولات، ولكن أقواله تظل محصورة في نطاق الخبر المحتمل للصدق والكذب، بل في نطاق الأسطورة التي تدعو إلى الشك في كل ما يقول. ثم يكشف هذا الحاخام عن أهدافه الحقيقية فيربط البروتوكولات بحقد العالم المسيحي على الصهيونية، وغيرته منها لأنها «حديثة ومتقدمة جداً»، كما يزعم. وكأن العالم المسيحي مكوّن كله من إنسانية متخلّفة لا حضارة لها، تبهرها حضارة اليهود وحدهم بعد أن دخلوا في الصهيونية أفواجاً. ثم هو يقحم الكنيسة الكاثوليكية في الموضوع، ويتهمها بالتعصّب الدائم ضد اليهود، ناسياً في لهيب غضبه أن البروتوكولات قد نبعت في أرض أرثوذكسية (روسيا)، لا كاثوليكية، ثم عرفت للعالم الغربي من بريطانيا، وهي كذلك أنجليكانية وليست كاثوليكية. والواقع أن الرجل قد نسي في رفض البروتوكولات كل دليل علمي، واكتفى بترويج مغالطات لا يمكن منحها الصفة التاريخية، ليكشف في النهاية عن حقده على العالم المسيحي، وعن انخراطه في زمرة المتطرفين من أنصار الصهيونية. وهو بطبيعة الحال حرٌ في التعبير عن رأيه، حتى بهذا النوع من الهذيان، ولكن الذي يؤخذ عليه هو أنه بدأ مقاله بشبهة، وأنهاه بآية من الكتاب المقدس، وهو في ذلك يكون قد خدش في شخصه صفة الحاخام، لأنه وضع كلام الأنبياء في نفس المستودع الذي وضع فيه ما شاء من الأباطيل.

ثم إن اليهود يختلفون فيما بينهم في أسلوب التشكيك في نسبة هذه البروتوكولات إليهم. فالكاتب الصهيوني الفرنسي «إدمون فليج» ـ وهو معاصر للحاخام ليبر يعيش معه في فرنسا، وفي باريس ـ يدلي في هذا الصدد بأقوال مختلفة تماماً، فالبروتوكولات توصف بقلمه الوصف التالي[٢٩]:

«وهي محاضر مزورة، تهدف إلى كشف مؤامرة مزعومة، يدبرها

(٢٩) المرجع السابق، الجزء الثاني، صحيفة ٣٩٢، ٣٩٣.

الشعب الإسرائيلي لحكم العالم، وقد نشرت بلغات مختلفة بين سنتي ١٩٠٥ م-١٩٢٠ م، وانتشرت في كل مكان بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ م-١٩١٨ م، بجهود أنصار اللاسامية. وقد أقيمت البراهين المستفيضة على تزويرها بفضل لوسيان فولف، وسالومون رياناك، وموريس ليبر (وغيرهم من اليهود)، وبفضل الأب اليسوعي بيير- شارل أيضاً. وقد عثر على النصوص الأصلية التي استعملها مرتكبو هذا التزييف، وكلها نابعة من الشرطة السرية لقيصرية روسيا: نيلوس، راتشكوفسكي، مانيولوف. وفكرتها الأساسية مأخوذة من رواية كتبها جويدشة، بعنوان «بياريتز»، ظهرت في برلين عام ١٨٦٨ م، وفيها يجد القارىء جمعية سرية من «المختارين من إسرائيل» تعقد جلساتها في المقابر اليهودية، بمدينة براغ في تشيكوسلوفاكيا، وفي أحد هذه الاجتماعات يرد خطاب خيالي على لسان حاخام يهودي يعرض المخطط الإسرائيلي، وقد أعيد نشر هذا الخطاب في ألمانيا سنة ١٨٩٣ م، لكن بعد ادّعاء أنه وثيقة حقيقية حصل عليها البريطاني السير جون ردكليف، وقد أضيفت زيادات مختلفة إلى هذا الخطاب المزعوم، مستمدّة مباشرة أو بطريق غير مباشر من الكتابات اللاسامية التي كتبها آيز نمنجر، جو جنودي موسو، بوبيد ونوزتسيف[٣٠]، وغيرهم. وهذا هو أصل البروتوكولات».

ونلاحظ هنا أيضاً محاولة إدمون فليج أن يستعمل الأسلوب العلمي في التهويش، بالإكثار من الأسماء والتواريخ والإحالات إلى نصوص يعتبرها أصل البروتوكولات، دون أن يكون هناك أي توثيق لمزاعمه، ولا محاولة لذكر نص واحد من النصوص الكثيرة المتّهمة وإثبات أنها انتقلت إلى البروتوكولات.

---

(٣٠) الأسماء التي يذكرها فليج هي على ترتيب ورودها في مقالة:

Lucien Wolff- Salomon Reinach- Maurice Liber- Pierre- Charles- Nilus- Rotchkowski- Manouloff- Goedsche- Biarritz- Sir John Redcliffe- Eisenmenger- Gongenot des Mousseaux- Pobedonoszev.

ويرى الذين يثبتون التهمة على اليهود أن ما جاء في البروتوكولات مطابق دائمًا لأحكام وتفاسير ووصايا وردت في التوراة والتلمود والمدراش، وأن بعض هذه الوصايا ثابت في نسخ مخطوطة، أو في طبعات قديمة من الكتب اليهودية، قبل أن تجري فيها أقلام كهنة اليهود المحدثين بالتصفية من كل ما يثير اللاسامية. ويقولون إن الغوص في هذا اللون من الأدب الديني الإسرائيلي العميق الجذور في التقاليد اليهودية، المكتوب بلغات وأساليب لا يتقنها إلا حكماء هذه الطائفة، من الأدلة على ثبوت التهمة عليهم.

ويضيفون دليلاً آخر على ثبوت تلك التهمة، هو أن اليهود يحرصون دائمًا على جمع كل ما يصدر من نسخ البروتوكولات بأية لغة لإعدامها، ويدفعون في ذلك الأموال، ويبذلون الجهد المضني، ولو كانوا أبرياء لما اهتموا كل هذا الاهتمام، ولتركوا النسخ بين أيدي الناس ونشروا بجانبها ما يدحض نسبتها إليهم فعلاً.

ونشعر نحن من جانبنا، وفي وسط هذا الغموض الشديد، بأن البروتوكولات قد تنتمي بطريق غير مباشر لا إلى «حكماء صهيون»، ولكن إلى «أحباء صهيون»، تلك الجمعية التي نشأت في أوديسا، وانعقد أول مؤتمر لها سنة ١٨٨٤ م. وكان قيامها رد فعل لصدور «قوانين مايو سنة ١٨٨٢ م» الخاصة بفرض قيود على نشاط الأقلية اليهودية في روسيا. أي أن هذه المنظمة كانت ثمرة سلسلة من حوادث الحقد اليهودي واللاسامية الأممية، وكانت قد تغذّت ـ إلى جانب الغذاء الفكري التقليدي ـ بكتابات روّاد الصهيونية الأول مثل: الحاخام يهودا القلعي، والحاخام تسفي هيرش كاليشر، والمفكر اليهودي الألماني الصهيوني موسى هيس.

وكانت جماعة أحباء صهيون هذه تضم مجموعة من الأدباء والكتّاب والمفكرين اليهود، في مقدمتهم الطبيب والأديب اليهودي الروسي الدكتور ليوبينسكر، والتلمودي الأديب المتبحر في الفكر اليهودي موسى ليلينبلوم،

وزميله آشر جينزبرج الذي كان يوقّع مقالاته باسم «آحاد هاعام» أي: واحد من الشعب، وغيرهم. وقد رأينا كيف اتّسعت منظمة أحباء صهيون بحيث ضمّت الأغلبية الساحقة من الشباب اليهودي في أوروبا الشرقية كلها، حيث كان لها ما لا يقل عن ١٢٠٠ مركز في تلك الأنحاء، كل هذا في وسط نيران البوجروم، التي أشرنا إلى بعض أمثلتها. فليس عجيباً أن تفكر عناصر متطرفة من جماعة بهذه الضخامة، في كتابة مذكرات تنبع من تفاعل بين الأفكار السياسية الثورية الحديثة، والشخصية الإسرائيلية التقليدية الشاعرة بعقدة الاضطهاد، وأن تقع بعض هذه المذكرات في أيدي الكارهين لليهود من الأمم الأخرى، فينشروها على الناس، إما بأمانة، وإما بعد مراجعة تتدخل فيها أقلامهم لتجعل رنين ناقوس الخطر أشد إفزاعاً.

وعلى سبيل المثال نقدم هنا البروتوكول الرابع، من ترجمة محمد خليفة التونسي:

كل جمهورية تمر خلال مراحل متنوعة.

أولاها فترة الأيام الأولى للثورة العمياء التي تكتسح وتخرّب ذات اليمين وذات الشمال.

والثانية هي حكم الغوغاء، الذي يؤدي إلى الفوضى، وبسبب الاستبداد. إن هذا الاستبداد من الناحية الرسمية غير شرعي، فهو لذلك غير مسؤول. وأنه خفي، محجوب عن الأنظار، ولكنه مع ذلك يترك نفسه محسوساً به. وهو على العموم تصرفه منظمة سرية تعمل خلف بعض الوكلاء، ولذلك سيكون أعظم جبروتاً وجسارة. وهذه القوة السرية لن تفكر في تغيير وكلائها الذين تتخذهم ستاراً، وهذه التغييرات قد تساعد المنظمة، التي ستكون كذلك قادرة على تخليص نفسها من خدمها القدماء، الذين سيكون من الضروري عندئذ منحهم مكافآت أكبر، جزاء خدمتهم الطويلة.

http://al-maktabeh.com

مَن ذا، وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفيّة عن عرشها؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتنا الآن. إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم لا يعمل في غفلة كقناع لأغراضنا، ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا، وفي مركز قيادتنا، ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيراً.

يمكن ألاّ يكون للحرية ضرر، وأن تقوم في الحكومات والبلدان من غير أن تكون ضارّة بسعادة الناس، لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله، وعلى الأُخوّة والإنسانية، نقية من أفكار المساواة التي هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلق، والتي فرضت التسليم. إن الناس ـ محكومين بمثل هذا الإيمان ـ سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم (هيئاتهم الدينية)، وسيعيشون في هدوء واطمئنان وثقة، تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض. وهذا هو السبب الذي يحتّم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورية مادية. ثم، لكي نحوِّل عقول المسيحيين عن سياستنا، سيكون حتمًا علينا أن نبقيهم منهمكين في الصناعة والتجارة، وهكذا ستنصرف كل الأمم إلى مصالحها، ولن تفطن في هذا الصراع العالمي إلى عدوّها المشترك. ولكن لكي تزلزل الحرية حياة الجوييم الاجتماعية زلزالاً، وتدمرها تدميراً، يجب علينا أن نضع التجارة على أساس المضاربة، وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار، لن تستقر في أيدي الأمميين (غير اليهود)، بل ستعبر خلال المضاربات إلى خزائننا.

إن الصراع من أجل التفوّق، والمضاربة في عالم الأعمال، سيخلقان مجتمعاً أنانياً، غليظ القلب، منحلّ الأخلاق. هذا المجتمع سيصير منحلاً كل الانحلال، ومبغضاً أيضاً من الدين والسياسة، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد، وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب، متخذاً اللذات

المادية التي يستطيع أن يمدّه بها الذهب، مذهباً أصيلاً. وحينئذ ستنضم إلينا الطبقات الوضيعة، ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين، دون احتجاج بدافع نبيل، ولا رغبة في الثورات أيضاً، بل تنفيساً عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا.

بهذا ينتهي البروتوكول الرابع الذي يصف فن اليهود في انتهاز كل الفرص: الحرية والاستبداد، السلم والحرب، المادية والروحية، التقوى والإلحاد، الأغنياء والفقراء. كل ذلك يستغلونه لمصلحتهم هم بوصفهم شعب الله المختار، وبفضل حكومة سرية في أيام الشتات، قد لا تكون دائمًا الماسونية، أو قد تكون بجانبها قوى رهيبة ظاهرة أو باطنة مثل القهيلة، أو السنهدرين، أو الرأسمالية اليهودية، أو الشيوعية اليهودية أيضاً، أو دولة الصحافة والإعلام والملاهي ـ وبخاصة السينما ـ وكذلك الكتب التي تمجّها المطابع بغزارة، لا للتثقيف ولكن لقتل الوقت وإلهاب النفوس بانفعالات مدمرة: جنسية وروحانية وخرافية وإجرامية، وما إلى ذلك.

وإذا كان كتاب البروتوكولات يثير كل هذا الجدل فقد سبقه ببضع عشرات من السنين كتاب لا جدال فيه، من تأليف «ألكساندر ماك كول»، وهو دكتور في اللاهوت المسيحي، ورئيس رعاة كنيسة «سان جاك» في لندن، وعنوان الكتاب «مسالك إسرائيل»، وقد أعطاه عنواناً عبرياً أيضاً هو «نتيبوت عولام» أي: المسالك الأزلية[٣١]. وهو يحتوي على مجموعة من نصوص التلمود والمدراش في أكثر من أربعمائة صفحة، معها أصولها العبرية والآرامية. وكلها تحوم حول الحقد على العالم، والتآمر على سلامة

(٣١) الترجمة الفرنسية التي أمكننا إليها من هذا الكتاب بعنوان:

Nethivath olam; Les Sentiers d'Israel; Librement traduit de l'Anglais de; M. Alexandre Mc Caul; Docteur en théologie; et Recteur de l'Eglise de St. Jacob, à Londres, far; Ph. J. Oster; Paris- Metz.

البشر، والسخرية من جميع العقائد والأديان ما عدا اليهودية، ونحو ذلك مما يمكن أن يكون أدمغ حجة من البروتوكولات نفسها. فهو مثلاً ينقل نصاً من التلمود والمدراش، خلاصته أن أي فرد من الجوييم ـ أبناء الأمم الأخرى ـ يعكف على دراسة التوراة يجب قتله، إذ ليس له إلا أن يلتزم من الوصايا العشر إلا بسبع فقط هي التي خصصت للجوييم. كذلك إذا منح واحد من الجوييم نفسه يوم راحة في الأسبوع، ولو كان من الأيام العادية (غير السبت) فإنه يجب قتله. كما يذكر نصوصاً تحرّم على المرأة اليهودية إرضاع طفل جارتها غير اليهودية، حتى لو تعرض الطفل للموت جوعاً. وأشياء كثيرة من هذا القبيل.

الشّخصيّة الإسرائيليّة والحلّ الإنساني

الذين يدرسون طبيعة الإجرام في العصر الحديث، يقسمونه إلى فصائل وأنواع تتلخص في أن المجرم ينتمي إلى قسم من الأقسام الثلاثة الآتية:

- النفوس الشريرة بطبعها، التي لا يكمن فيها وازع ولا ضمير، ولا تريد بحال من الأحوال أن تحترم إنسانية الآخرين من البشر ولا ممتلكاتهم ولا أعراضهم ولا مقدساتهم ولا آمالهم في الأمن والرفاهية. ونعتقد أن اليهود ليسوا من هذا القسم. فالوازع الديني والإنساني موجود عندهم، ولهم تقاليد طيبة يعترف بها كل من يعرفهم. منها حبّ العمل، والتضامن أمام الشدائد، والإخلاص بين الأصدقاء، والرغبة في المعرفة، والابتهاج بالإنجازات الكبيرة، والعناية بتربية الأبناء، واحترام الكبار.

- النفوس المنحرفة، أي أن نزعات العدوان عند هذه الطائفة من المجرمين ليست طبيعية متأصلة في عجينة الشخصية، ولكنها جاءت من المحيط الخارجي. فبعض الأحداث ينشأون في أسرة مفككة، بين أب سكّير مقامر غافل عن كل مسؤولية، وأم كثيرة الصخب، جاهلة، كارهة لزوجها، أو ما هو أشنع من ذلك. فإذا أضيف إلى هذا مجموعة من الرفاق أكثرهم يعاني من أزمات مماثلة، وقع الانحراف، واستقرت الجريمة في النفوس. واليهود ليسوا من تلك الطائفة أيضاً. فحرصهم على تقاليد قديمة جداً، يبيّن أنه لم يكن هناك تفكك اجتماعي أو نفسي

خطير يمكن أن يسوقهم إلى الانحراف. وبروز كثير من مفكريهم على مرّ العصور، الذين يريدون بإخلاص أن يُسهموا في سعادة الإنسان دليل آخر على ضعف دور الانحراف في سبك الشخصية اليهودية.

النفوس المريضة، وفي هذه الحالة الأخيرة نجد الشخصية الإجرامية تمثل نتيجة لسلسلة من الإصابات العميقة، وتحمل اضطرابات في الشخصية سببها وراثة ثقيلة من أمراض الأسلاف، ثم حالة من الصحة النفسية والاجتماعية تأبى الانخراط في الحياة العادية للمجتمع الإنساني. وفي جميع التشريعات نجد القضاة يضعون موضع الاعتبار كون التصرفات الإجرامية صادرة عن شخصيات مريضة، ويعتبرون ذلك ظرفاً مخففاً، بحيث يكون حكمهم في النهاية وافياً بغرضين: الحدّ من الجريمة، والعلاج من المرض. وفي رأينا أن الشخصية الإسرائيلية من هذا النوع الثالث. وقد استفحل مرضها، حتى وصل في بعض الأحيان إلى الجنون المطبق، بسبب أفواج المتطرفين والحمقى والمصابين بالهستيريا والهلوسة وجنون العظمة وأحلام اليقظة وأزمات الاكتئاب واليأس والبكاء، تولوا مقاليد هذه الجماعة ومقدراتها، قديماً وحديثاً فكانت نتيجة كل ذلك الصهيونية.

فالصهيونية فكراً وسلوكاً وتطبيقاً موبوءة بالتعصّب العنصري والتعصّب الديني، وعقد الشعور بالاضطهاد، والفزع من اللاسامية، كما أنها مصابة بأورام انتقلت عدواها إليهم من طغاة كثيرين فتكوا بالإسرائيليين، وتفننوا في التنكيل بهم، وكان من أواخر ذلك البوجروم واللاسامية الهتلرية. فراح الغلاة من الصهاينة يقلدون أولئك السفاحين.

والعلاج من هذه المجموعة من الأمراض، ما كان منها وراثياً، وما أخذ بالعدوى، وما تحوصل في ثنايا الشخصية الإسرائيلية في الظروف التي شاء اليهود أن يعيشوا فيها، أو التي أُجبروا عليها، لا بدّ أن يكون طويلاً يحتاج إلى صدق نية منهم في الشفاء، وإلى نظرة إنسانية شاملة من جميع

النفوس المحبة للخير. وهي تجربة ليست بالسهلة، فمن السمات المميزة للشخصية الإسرائيلية العناد، والإسراع إلى الارتداد عن طريق الخير. وصفهم ربهم في التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة، أبعد الناس عن الطاعة وعن لين الجانب (الخروج ٣٢: ٩ و٣٣: ٣، ٥ و٣٤: ٩ التثنية ٩: ٦، ١٣)، كما أكثر أنبياؤهم الشكوى من كفرهم وعنادهم وقسوتهم. ويكفي في ذلك أن نسوق سطوراً من كلمة طويلة للنبي أرميا يقول فيها: «مثل خزي اللص إذا وقع، هكذا خزي ال إسرائيل، هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم، إذ يقولون للخشب أنت أبي، وللحجر أنت والدتي، لأنهم أداروا نحوي قفاهم لا وجههم، وفي وقت مصيبتهم يقولون قُم وخلصنا. فأين آلهتك التي صنعت لنفسك؟ فليقوموا إن استطاعوا أن يخلصوك في وقت بليتك. لأنه قد صارت آلهتك بعدد مدنك، يا يهوذا، لماذا تخاصمونني؟ كلكم عصيتموني، يقول الرب. ضربت أبناءكم بلا فائدة، إذ لم يقبلوا تأديباً. سيفكم أكل أنبياءكم كأسد مفترس» (أرميا ٢: ٢٦ - ٣٠).

وقد حاول مفكرون من عظماء اليهود على مر الأجيال أن يعالجوا الأمة المريضة من دائها القديم فلم ينجحوا. كان كلام بعضهم يفسر على غير ما أريد به، إما لكي يتجه بتفسيره المفتعل نحو أهدافهم ومآربهم، كما صنعوا بفكر الطبيب موسى بن ميمون، وإما للتشنيع والتجريح والافتراء على رواد الإصلاح من إخوانهم، كما فعلوا بصاحبهم موسى مندلسون، أحد الإنسانيين الكبار في القرن الثامن عشر. فقد ذهب هذا المصلح اليهودي إلى أن مشكلة اليهود الحقيقية تكمن في أن شخصيتهم قد تبلورت وراء أسوار الجيتو، وأن فكرهم نفسه قد اقيمت من حوله حواجز أقوى من أسوار الجيتو، صنعوها هم بأنفسهم وتحصنوا في داخلها، وتعودوا على ظلامها الدامس. ورأى أن الخروج من هذا الحبس الاجتماعي والفكري لا يكون إلا باعتبار اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقاً ونمطاً في المعيشة، لا دخل فيها للعنصرية ولا للكبرياء النابعة من الخرافات. هو الذي رفع في

قومه الشعار المشهور: «كن يهودياً في بيتك، ومواطناً مخلصاً في الطريق». وكان حلّه هذا في حقيقة الأمر متسقاً مع اتجاه العالم نحو الحرية، فقد قامت الثورة الفرنسية، التي أعلنت فيها حقوق الإنسان بعد موت مندلسون بثلاث سنوات فقط. فما كان جزاؤه من قومه عن هذا الجهد المضني؟ الكذب والإفك المفترى الذي يخدش الرجل في علمه وعقله وكرامته وعرضه وأسرته. انبرت له الأقلام اليهودية المسمومة بالتعصب، فلم تترك جانباً من جوانب حياته إلا لوثته. وتعقب المعاندون من رجال الدين الإسرائيلي كتبه فجمعوها وأحرقوها، وحرّموا على قومهم قراءتها إن أُعيد طبعها، وجعلوا هذا التحريم مؤبداً إلى يوم القيامة، لأنهم وصموا الرجُل بالزندقة أيضاً.

وقبل مندلسون ظهر في هولندا الفيلسوف اليهودي المتحرر باروخ سبينوزا، في القرن السابع عشر. وكان هو أيضاً يعتقد أن نهاية الشقاء اليهودي، شقاء اليهود وشقاء العالم باليهود، تكمن في إيمان هؤلاء الناس بالدين فقط، وتخلصهم من النعرة القومية الأسطورية التي تفسد ما بينهم وبين الإنسانية كلها. وكان يرى أن الشخصية الإسرائيلية يمكن أن تحافظ على فضائلها لو أنها لزمت شرائع الدين، دون أن تفكر في الاتجاه نحو أرض معينة مثل فلسطين بحجة أنها أرض الآباء والأجداد. ففي يقينه أن الله لا يشترط لعبادته مكاناً جغرافياً معيناً، وأنه يقبل الصلاة ويسمع الدعاء من أي مكان على ظهر الأرض. وكان يوضّح منطقه هذا بقوله إنه هولندي يؤمن بشريعة موسى، والمعبد اليهودي في أمستردام هو بالنسبة له كهيكل سليمان في أورشليم بالنسبة لسليمان. ولم يكن الرجل يقتصر على تعليم اليهود وحدهم، بل كان يشجع كل من قصده ليتلقى عنه العلم، لأنه لم يكن من ضيق الأفق بحيث يحصر نفسه في نطاق التلمود والمدراش. كان مفكراً وفيلسوفاً يؤمن بوحدة الوجود: فالله سرٌ كبير يسري في الخليقة كلها. وهكذا يستحيل أن يكون له «شعب مختار» دون سائر الشعوب. فماذا كان جزاء هذا المُصلِح اليهودي من قومه؟ أعلنت

السلطات الدينية الإسرائيلية طرده من الدين، وألصقت بـه من التهم ما أمدّها به خيالها الخصب. ولم يحاول الرجل أن يتصدى لهذه الغوغائية في الفكر، وانصرف إلى العلم، وإلى عمله الذي يكتسب منه رزقه، وهو صناعة العدسات البلورية. وإذا بالقهل يحاول إرهابه، ثم يحاول قتله، لولا أن تداركه بعض المعجبين به من تلاميذه ومحبّيه، فنصحوه بأن يترك أمستردام، ليعيش في بعض الأرياف القريبة منها، حتى يتمكن هو وأصدقاؤه من تمييز الإرهابيين والسفاحين والقَتَلَة لو أن بعضهم حدّثته نفسه بالمجيء إليه في المكان الذي اعتزل فيه.

ولم نشأ أن نذكر في تلك الزمرة سيدنا المسيح عليه السلام، لأن دعوته كانت من نوع آخر، ليست اجتهاداً عقلياً فلسفياً، ولكنها وحيٌ من السماء. لقد تعب المسيح مع اليهود. حاول في أول الأمر أن يجعل دعوته بينهم هم وحدهم، فأخذهم العناد، وتصلّبت أعناقهم، وكابروا وتآمروا، وطالبوا بقتله. فلما رأى ذلك منهم حطّم أسطورة العنصر، وجعل الشريعة للناس كافة. ويرمز الإنجيل إلى هذا الانتقال بقصته مع امرأة من غير بني إسرائيل، يصفها القديس متىّ بأنها كنعانية، ويزيد القديس مرقس ذلك تحديداً فيقول إنها كانت من الجوييم «أممية، وفي جنسها فينقية سورية»، (إنجيل مرقص ٧: ٢٦). وقد بدأ المسيح كلامه معها بقوله: «إنني لم أبعث إلا للخراف الضالّة من بني إسرائيل»، (إنجيل متىّ ١٥: ٢٤). ولكن المرأة ألحت عليه، مما تأكد معه أنها تؤمن ببركته، وكانت تطلب منه أن يدعو لابنتها المريضة حتى تشفى. فشفاها، وأعلن بعد ذلك أنه بالإيمان وحده، لا بالنسب، يدخل الإنسان في ملكوت السماء.

ومع ذلك بقي اليهود مرضى حتى الآن.

وبعد، فهل هناك من حل؟ إن بداية الحل في استئصال أسباب المرض. وهذه الأسباب تحوصلت في العصر الحديث في الصهيونية، التي تلعب بالمريض لعب الساحر الدجال في المجتمعات الجاهلة المتخلفة،

الذي يعد بالشفاء والعافية عن طريق تحضير الجن، وإطلاق البخور، وتكثيف الظلمات، وإصدار القعقعة الشديدة التي تصمّ الآذان، ليشعر المريض شعوراً وهمياً بأن القوى الخفية قد انطلقت لتحل له جميع مشاكله.

لقد دأبت الصهيونية على أن توسوس في صدور أولئك الناس بأوهام الغزو والفتح والقهر والانتصار، والسيطرة على العالم العربي، والوصاية على أرزاقه ومقدّراته. ولا بدّ أن يقوم من الإسرائيليين أنفسهم فريق واعٍ بحقائق الأمور، مدرك خطورة المرض المستبد باليهود، فيتعاون مع كل ذوي النفوس السليمة في العالم، على الوصول إلى الشفاء. وقد لا يكون الشفاء محتاجاً حتى الآن إلى عمليات رهيبة، مثل البتر أو الكيّ. فقد يكفي في ذلك أن يعيد بعض الحكماء من الإسرائيليين النظر في تكوين مجتمعهم، فيستبعدون منه المجانين، خصوصاً أولئك الذين يأخذون مكاناً في القمة وفي الصفوف الأولى. عندئذ قد ترتدّ الشخصية الإسرائيلية إلى إدراك واقعي لأبعاد قوتها، وتقدير حقيقي للأخطار الرهيبة التي تهددها لو أنها استمرت في إيمانها بفلسفة العدوان والإرهاب. إن بقاء الشخصية الإسرائيلية حافظة لفضائلها متخلصة من رذائلها، آمنة من شبح الانهيار الكبير الذي تعرضت له أكثر من مرة في التاريخ، يتوقف على صدق النيّة في السلام. ولن تصدق النيّة في السلام حتى يطيح اليهود بتجار الحرب، ويختاروا لولاية الأمر فيهم قوماً آخرين، مخلصين في حبّ السلام، ومتواضعين التواضع الذي وصفه المدراش بأنه درس هام أراد الله تعليمه لليهود عندما ترك جبال الدنيا العظيمة المليئة بالعيون والغابات الخضراء الجميلة المتوّجة بالثلوج، واختار جبل الطور ليكلّم منه موسى، كما ترك أعظم الأشجار وأجملها ليتجلى لرسوله من شجيرة صغيرة على هذا الجبل[٣٢]. كذلك كثر في التلمود والمدراش القول بأن اليهود يجب أن يمتازوا بثلاث فضائل هي: الرحمة، والحياء، والإحسان[٣٣].

(٣٢) مدراش يلقوط على سفر الخروج - ٢٨٤.

(٣٣) التلمود، بباموت ١٧٩ - التلمود الأورشليمي، قدوشين ١/٤ - مدراش ربا على سفر =

أما الاغتصاب، والتهديد بالقوة، والعدوان المتكرر المستمر، فإنه يطيل الداء، ويُبعِد الشفاء. ومما لا شك فيه أن العالم العربي لن يرضخ للجوار الدائم بجانب مريض، لا سيما إذا كان مرضه في الشخصية، بحيث يضعه على حافة الجنون. ولن يكون لليهود أمل في الخلاص، الذي يعتبر ركناً من أركان الدين عندهم، إلا إذا تخلصوا هم أولاً من عقدهم وأمراضهم، وتخلصوا كذلك من المفسدين المعربدين الذين يوجدون في قياداتهم وزعاماتهم! بهذا تتحرر الشخصية الإسرائيلية من هذيان المرضى، وتدخل في منطق العقلاء. ونرجو أن يكون ذلك قريباً.

= العدد ٨، وعلى سفر التثنية ٣ ـ مدراش يلقوط على سفر التكوين ٢/٨٢ وعلى سفر التثنية ٨٤٨، ٨٨٩، وعلى سفر صمويل ١٥٤، وأرميا ٢٧٦.

http://al-maktabeh.com

فهـــرس

مقدمة	٥
ضرورة التعرف عن الشخصية الإسرائيلية	٩
ما هي الشخصية؟	١١
ما معنى الإسرائيلية؟	١٤
شيوع كلمة «يهودي» على الإسرائيليين	١٨
من هو الإسرائيلي؟	٢٠
ما معنى لفظ عبري؟	٢٣
ما معنى اسم «يهودي»؟	٢٨
مصطلح اليهودي التائه	٣٢
عقدة الانفصال عن البشر والامتياز عليهم عند اليهود	٣٥
فكرة الصراع في تكوين الشخصية الإسرائيلية	٤١
ماركس وفكرة الصراع عند اليهود	٤٣
مقومات ثلاث للشخصية الإسرائيلية	٤٧
إيمان اليهود العميق بحقارة الأمم	٤٧
مديح اليهود لأنفسهم	٥٠
العنصرية في التنظيم الاجتماعي الإسرائيلي	٥٠
الشخصية الإسرائيلية وعقدة الشعور بالاضطهاد	٦٥
اللاسامية واليهود	٧٧

وقائع التنكيل باليهود (البوجروم) ٨٤
بروتوكولات حكماء صهيون ٩١
الشخصية الإسرائيلية والحل الإنساني ١٠٢
الفهرس ١٠٩